



محمّد صادق



رواية





الرواق للنشر والتوزيع

استهلال!

كعادته، هبطت قطرات العرق على جبينه العريض، وهو يدخل من ذلك الباب الواسع في قاعة المحاضرات الواسعة.. لم ينظر لأحد على الإطلاق، حتى وقف خلف ذلك المكتب الصغير، ووضع بعض الأوراق والكتب عليها بسرعة، لتتناثر بعض الأوراق على الأرض، فتنطلق ضحكات خافتة في المكان. نظر للورق الملقى عليها لحظات طالت.. ثم تجاهل الورق تماما، وهو يرفع عينيه للطلاب، لأول مرة منذ أن دخل القاعة..

تنحنح لحظات، ثم قال بعد فترة صمت:

ـ المحاضرة دي ممكن ناخدها بأسلوبين... أسلوب علمي بحت... مصطلحات علمية وقواعد وقوانين والدخول في علم النفس العميق...

وأكمل ملتفتا لهم في هدوء:

ـ أو شرح بسيط قوي... ملناش علاقة بالعلم اطلاقا... اسلوب في الشرح مبسط جدا... كأنكم بتتكلموا مع واحد صاحبكم مثلا... ونهتم أكثر بالمشاعر والاحاسيس واساليب تناولها... أيه رأيكم؟...

نظروا لبعضهم في حيرة... دائما ما يرتبكون أمام الأختيار... لم يعتادوا أن يسأل المعلّم طلابه أن يختاروا شيئا...

قال:

ـ الاقتراح الأول يرفع أيده...

ارتفع أياد قليلة في تردد، فقال مبتسما كي يريحهم من عبء المسئولية:

ـ اعتقد اننا كده هاناخد الاقتراح التاني...

وساد صمت تام للحظات طالت.. قطعه هو بنحنحة قصيرة، ورفع عينيه ثانية لكل الباقين في القاعة، وقال بصوته العميق:

ـ أنا (أسامة حافظ)..

بدأت العيون تنظر له بانتباه، فابتسم هو في بساطة وقال:

ـ أنا أخصائي علاقات زوجية وأسرية، ماجستير في دراسة النفس البشرية وسلوكياتها في إيجاد شريك الحياة، يعني الحب..

وأكمل وهو يعدل كرافتته:

ـ طبعا معظم الحضور من الآنسات أو المدامات.. ورجالة قليلة.. لأن المحاضرة ديه أولا: خمس أو ست ساعات، على حسب سعة صدركم. ثانيا: محاضرة معمولة في موضوع مايهمش رجالة كتير، لأن الرجالة كلهم ـ طبعا ـ مقطعين السمكة وديلها ومش محتاجين واحد زيي ييجي يقول لهم أو يكلمهم عن الحب.. أو بتعبير علمي أكتر: «التطورات النفسية المصاحبة لإيجاد معنى لشريك الحياة»...

وأشار لهم اشارة عامة وهو يكمل:

ـ في المحاضرة ديه بالذات، كل القواعد اللي متعودين عليها برة مالناش دعوة بيها.. يعني أنا مايهمنيش أنت بتشتغل فين، ولا أحلامك ايه، ولا سنك أيه.. عشان تعرّف نفسك هنا، تقول اسمك وحالتك العاطفية وبس.

ثم نظر للحضور نظرة عامة، وقد أثار فضولهم... لكنه شرد للحظات، ثم قال كأنما لم يقل شيئا على الإطلاق:

ـ كلنا بلا استثناء بنلف في الدواير.. والدنيا تلف بينا!.. كل الناس والنباتات والحيوانات بيلفوا في دواير، لأن الدايرة هي الأسلوب العبقري في ضمان الاستمرارية وعدم التجديد.. كل حاجة مربوطة ببعضها قوي.. كل حاجة حصلت قبل كده ومش جديدة.. كلنا بنعيد نفس الأخطاء ومابنتعلمش من اللي قبلنا.. احنا اتخلقنا كلنا بسناريوهات محفوظة.. وكلها بتحصل لنا كلنا كأننا شخص واحد. المشكلة ـ أو العبقرية ـ أن ربنا خلق الدواير ديه أوسع مما يمكن لعقلنا الصغير أنه يدركها.. دايرة كبيرة قوي.. ماينفعش تركز في تفاصيلها أو تلمها، إلا لو عشت في دواير كتير قوي وفضلت فاكر تفاصيلها.. يمكن عشان كده ربنا خلقنا بننسى.. عشان لو مانسيناش.. ماحدش أصلا هيغلط!

صمت قليلا، ونظر للوجوه التي أمامه لحظات، ثم ابتسم قائلا وهو يخرج من درج المكتب دائرة ورقية:

ـ الكلام ممكن يكون تقيل شوية، بس واحدة واحدة.. م الآخر كده.. انت داخل في دايرة.. والفرق بينك وبين اللي جنبك....

ويبدأ في فرد تلك الدائرة الورقية لتصبح مستقيمة وأكمل:

ـ هو انك تكسر أي حاجة في الدايرة ديه.. انك تعرف تغير فيها.. أو على الأقل، تعرف أولها وآخرها عشان ماتغلطش تاني..

جاوبته كل العيون بنظرة اعتاد عليها في تلك المرحلة من المحاضرة.. نظرة ملل، مع بعض البلاهة وعدم التصديق.. وتلك العيون المحبطة، التي كانت تتوقع أن ثمن المحاضرة كان لابد أن يذهب في مكان مفيد أكثر؛ كـ(هارديز) مثلا.. دائما كان يحدث نفسه أنه لابد أن يغير من تلك المقدمة

قليلا.. يجعلها مثيرة أكثر وخاطفة للاهتمام وربما أكثر عمقا وغموضا، حتى يشعروا في البداية بكل ما هو قادم...

أكمل بصوت قوي:

ـ في المحاضرة احنا مش بنجاوب على أسئلة، ولا بنلاقي مبررات.. احنا هنا بنحاول «نعرف»، في الست ساعات، احنا مش هنفكر في نفسنا وبس.. احنا هنحاول كلنا نفكر، وكل واحد يطلع بالاستنتاج اللي يريحه.

وقال وهو يتجه للسبورة خلفه، ويبدأ في الكتابة عليها وهو يقول:

ـ احنا النهارده هنقرأ ونسمع عن أربع علاقات.. أربع قصص، بأربع شخصيات.. (أ) (ب) (ج) (د).. فيهم الـ(هيبتا) بكل تفاصيلها..

دون أن ينظر لهم، عرف أن هناك أكثر من خمس أيادٍ مرفوعة، فابتسم ابتسامة خفيفة وهو يكتب بخط كبير، ويقول ما يكتبه:

ـ هيبتا، ببساطة ومن غير فلسفة، هو رقم سبعة بالإغريقية.. تعريف الـ(هيبتا): السبع مراحل في الحب.. أو السبع مراحل في العلاقات العاطفية.. نفس الشيء تقريبا..

ووضع قلمه الأسود، والتفت لهم، وقد عرف أنهم بدأوا يستعيدوا فضولهم ثانية:

ـ رقم سبعة ده رقم رائع.. استنتاجي الشخصي اللي ممكن يكون غلط ان الرقم ده هو الدايرة بتاعة المشاعر.. في سبع مراحل لتقبل الموت.. في سبع مراحل في حياة الإنسان.. ده حتى فيه سبع مراحل للحياة ذات نفسها!.. في سبع مراحل لكل حاجة في الدنيا.. منها استنتجت، أنا وأخصائيين كتير زيي، السبع مراحل في الحب.. كل واحد بيسميها بطريقته.. كل واحد بيطلع المراحل على حسب خبرته.. بس ماحدش فيهم سماها «هيبتا» زيي!..

ثم التفت لهم قائلا:

ـ كل واحد فيكم معاه الملزمة اللي بتتوزع قبل ما تدخلوا صح؟..

أومأوا برؤسهم أن نعم، فقال بهدوء:

ـ دي اللي هانقرا منها مع بعض ان شاء الله...

قالها مبتسما، ثم التفت للسبورة وهو يمسك القلم ثانية، ويقول بصوت عالٍ:

ـ ودايما زي ما كل حاجة بتبدأ.. أول مرحلة هي «البداية»..

ونظر لهم ولعيونهم، التي بدأت أن تلتمع في فضول، وقال مبتسما:

ـ نقول «بسم الله الرحمن الرحيم»!

* * *

١ـ البداية

قيل يوما ما انه لا توجد بدايات حقيقية... بل مجرد نهايات مستمرة..

«احنا هنفضل قاعدين كده كتير؟»

التفت لها (أ) بتلك النظرة الفارغة، التي طالما كرهتها، وقال بصوت هادئ:

ـ لحد مانزهق..

زفرت في ضيق، وهي تنظر للنيل الممتد أمامها، وتلك المراكب السائرة، منها ما يصدر أصواتًا مزعجة، بتلك الأغاني الشعبية العالية والإضاءة الأكثر إزعاجا، ومنها الهادئ، ولكن في النهاية ممل لأقصى درجة. زفرت ثانية في ملل، وهي تضم ذلك الشال إلى صدرها أكثر، منتظرة أن يأتي الدفء منه، في ذلك الكافيه المطل على النيل، في عز الشتاء.. في حين يجلس هو مرتديا ذلك «التيشرت» بالأكمام القصيرة!..

رغما عنها، تأملته للمرة العشرين.. ربما لأنه مازال يثير تساؤلات كثيرة داخلها، ولا تدري إجابة لها.. هل هو سعيد حقا؟.. قال لها يوما إن هذا هو شكله وهو سعيد.. لكنها لا تصدق.. كيف يمكن له، وهو عمره ٣٥ سنة، أن تكون تلك سعادته؟.. وتعود لتسأل نفسها سؤالًا آخر طالما سألته لنفسها: هل تحبه؟.. ذلك الملل والفتور الذي يتعامل به مع الدنيا كلها، هل يروقها؟.. أم كونها على أعتاب الثلاثين دون زوج، جعلها تتقبل كل شيء منه، ويكفي أنه «فقط» موجود؟.. مئات الأسئلة السخيفة، التي تريد أن تهرب منها بالخروج معه، علها تشعر به أكثر؛ لكنه دائما يذهب بها

لأي مكان.. يسألها عن أحوالها بنصف عقل.. وما إن تنتهي، حتى ينظر لها بابتسامة مجاملة، ويصمت تماما.. يشرد قليلا، ثم يحاول أن يمزح، ذلك المزاح الذي لا هدف منه إلا تمضيه الساعات المتبقية.

لكن ليس اليوم.. لن أسمح بذلك..

اعتدلت في جلستها، وقالت بنفس العصبية..

* * *

رفعت إحدى الطالبات يدها، فأشار لها (أسامة) أن تسأل، فقالت:

ـ هو مش المفروض أن احنا بنبدأ بالبداية؟.. (أ) ده واضح أن علاقته عدا عليها سنتين تلاتة وبتنتهي.. يبقى ازاي؟

ابتسم (أسامة) ابتسامة خفيفة.. السؤال دائما يعني أن هناك من بدأ يهتم.. لذلك رد بسؤال آخر:

ـ وتعريف كلمة بداية ايه؟.. غير ان في حاجة لسة منتهية!.. ويعني ايه أصلا كلمة بداية حقيقة؟.. هل هي من ساعة ما اتولدنا، ولا من ساعة ما القلب دق، ولا من أول أيه؟... عشان كده ماينفعش نقيم البداية من أي وجهة نظر.. لأننا دايما.. بنبدأ من «النهاية»!

رفع واحد آخر يده، فقال (أسامة) بسرعة:

ـ تعالوا نكمل.. ولو لسة في أسئله نجاوب عليها.. ايه رأيكم؟

أنزل الطالب يده في حرج، وأكمل (أسامة)..

* * *

اعتدلت في جلستها، وقالت بنفس العصبية:

ـ أنا مش هافضل قاعدة كده زي كل مرة.. أنا عاوزة أتكلم شوية..

نفث دخان سيجارته في هدوء شديد، دائما ما يستفزها، لكنها تجاهلته وقالت:

ـ أنا حاسة ان علاقتنا مابتتحركش..

ابتسامة جانبية ظهرت على شفتيه وهو يقول:

ـ وأيه في الدنيا بيتحرك؟..

دائما تلك المحاولات المستفزة لجعل كل شيء عميق.. قالت بعصبية أكتر:

ـ أنا في واحد متقدم لي..

ضحك لأول مرة منذ أن جلس، وأخذ نفسًا آخر من سيجارته وهو يقول:

ـ ربنا يكرمك.. ايه ظروفه طيب؟

شعرت بدمها يفور، وقالت بعند:

ـ دكتور أطفال.. مطلق وماعندوش عيال.. وشافني في فرح بنت خالتي ومستعجل.. عنده شقة في الحي السابع..

بسخريته الدائمة قال:

ـ مطلق وماعندوش عيال.. تفتكري مايبيعرفش؟

قالت بعناد، ربما لأنها اعتادت تلك الامبالاة منه:

ـ لأ بيعرف قوي كمان..

لينظر لها وابتسامته تتسع، وهو يرمي بالسيجارة في النيل:

ـ دا انت مجرباه بقى..

صمتت وهي تنظر له بحدة، فعادت عينه للنيل ثانية، وهو يشعل سيجارة أخرى، وقال بهدوء:

ـ تفتكري في كام واحد دلوقتي في الدنيا قاعد نفس القاعدة ديه وبيقول نفس الكلام؟

قالت بعصبية:

ـ هو ده ردك؟.. انت بتستفزني ولا فعلا مش فارق معاك؟

اتسعت ابتسامته وهو ينظر لأعلى مغمضا عينيه، ثم هز كتفه وقال:

ـ روحي شوفيه.. يمكن ربنا يوفق القلوب وتلاقي راجل يستاهل انك تبقى معاه.. ولو طلع فعلا راجل كو..

قاطعته وقد بدأ صوتها يعلو:

ـ انت بتهرج صح؟.. يعني أنا مرتبطة بيك بقالي سنة عشان تقول لي كده؟.. أنت مابتحبنيش؟

لينظر لها في عينيها مباشرة تلك المرة نظرة طويلة.. تلك العين التي دائما تقول شيئا ما.. تلك العين التي أحبتها، رغم أنها لا تفهمها على الإطلاق.. تلك العين، التي جعلتها في البداية توافق عليه، رغم تحفظها الشديد تجاه العلاقات والارتباط. طوال عمرها لم ترتبط بشخص قبله، تحاول أن تكون لزوجها فقط.. حتى مر بها العمر دون أن يعرفها أو يراها أحد.. أحيانا تتساءل ماذا لو كانت أجمل أو في مستوى معيشي أفضل... لكنها كانت تستغفر ربها، وتثق به وتدعو له أن يجعل صبرها في ميزان حسناتها.. حتى أتى (أ) بكل ما فيه من تناقضات، فوافقت لأول مرة، لأنها شعرت أنه فرصة ما..

قال هو بصوته العميق الخافت:

ـ يا (سلمى).. أنا عشان بحبك قوي.. بقول لك كده..

لم تستطع أن تقاوم تلك الدموع، التي سالت على وجنتيها وهي تنظر له.. تأملت وجهه الممتلئ، وعينه العميقة، وذلك الوجه الذي امتلأ بشعيرات قصيرة في الذقن والشنب؛ ليس ليقول إلا أن هذا الرجل لا يعتني بنفسه إطلاقا.. رجل قارب على الأربعين، ولا يعي في الدنيا إلا أن يجد شيئا ما، لا يعرف حتى ما هو، لكنه يريد العثور عليه. كم.. تعشقه!

سالت دموعها أكثر، حين عادت عينيه للنيل في هدوء شديد، وهو ينفخ دخان سيجارته ببطء..

طالما استفزها!..

* * *

يا للملل!..

قالها (ب) لنفسه، وهو ينهض من على الفراش في تلك المستشفى، ويجلس رغم ما به من آلام. نظر بعينيه لذلك الرجل الأربعيني ذي الشارب، الذي ينام بعمق في الفراش الذي بجانبه.. لماذا جعلوه في غرفة مشتركة؟.. إنه ثاني يوم له يستعد لإجراء تلك العملية، والملل لا نهائي.. ليس هكذا يمضي شاب في السابعة عشر وقته.. المفترض أن يكون مع أصدقائه، يمضي وقتا أفضل، ولو بقليل!..

نظر لساعته في هدوء.. التاسعة مساء! نظر للغرفة الكئيبة الممتلئة بالأدوات الطبية.. ذهبت عيناه لمجموعة الروايات الموجودة على الكومودينو الصغير جانبه، فلم يجد منها ما تشد انتباهه. زفر ثانية وهو ينظر لأروع شيء في تلك المستشفى بالنسبة له.. الشرفة الواسعة المفتوحة بعرض

المبنى كله، محتوية كل الغرف، وتطل على النيل في تلك المنطقة بالمعادي..

أمسك تلك العصا ليستند عليها، وينهض متجاهلا ألمه، ويذهب في خطى بطيئة إليها، وهو يغلق باب الشرفة وراءه، حتى لا يزعج زميله في الغرفة. واستند إلى سور الشرفة، ونظر للنيل مشدوها!

كيف تحتوي مياة راكدة على ذلك السحر الذي لا يمر على عين أحد؟!.. على تلك الحالة الخاصة، التي تأخذك داخلها، مابين شجن ورومانسية وحلم وشرود؟!

مرت أكثر من نصف ساعة، وهو لا يفعل شيئا سوى نظرته للنيل، الشاردة من الدور الرابع في تلك المستشفى؛ حتى رن هاتفه بتلك الرنة التي عزفها هو بنفسه على المحمول، فنظر للاسم مبتسما في هدوء.. صديقة عمره (دنيا) - إن كان في السبعة عشرة سنة ما يسمى «عمرا» - فضغط زر استقبال المكالمة، وقال بهدوء:

- يعني ينفع كده؟

ضحكت (دنيا) بمرح وقالت:

- انت اللي قالقنا عليك ودخلت المستشفى.. حد قالك تعمل كده؟

ابتسم في هدوء ولم يرد، فقالت هي:

- بتعمل ايه دلوقتي؟

نظر للنيل ثانية مبتسما وقال:

- باسأل نفسي سؤال مهم قوي

لم ترد، فأكمل:

ـ هو النيل هو اللي ساحر فعلا؟.. ولا احنا اللي عاوزين نلاقي السحر في أي حاجة؟!

ضحكت وقالت مازحة:

ـ يا سيدي.. دي المستشفى خلتنا فلاسفة أهوه.. فين أيام ماكنت بتبص لي بصة متأملة كده وتقول لي «تفتكري الصرصار باصصلنا ازاي؟!»

ضحك هو بهدوء.. تعرف كيف تنتزعه من أي ملل أو ضيق. استند على سور الشرفة أكثر، محاولا التخفيف من آلامه قليلا.. قيل له كثيرا ألا يقف فترة طويلة، وعندما يشعر بالألم فلينم فورا.. لكن طوال عمره لم يعرف كيف يتقيد بالأوامر.. يشعر أن لها ذلك الثقل الغريب على صدره؛ لا يدري لماذا.. لكنه يعلم أنه في يوم ما سيموت بسبب شيء صحي، ولن يلوم أحدًا لحظتها إلا نفسه؛ لكنه يعرف هذا ويرضى به..

بل أحيانا يتمناه..

«رحت مني فين يا عم أنت؟»

عاد من شروده في مياة النيل، وقال بهدوئه:

ـ واضح ان احنا اللي عاوزين نلاقي السحر في أي حاجة.. النيل والبحر والسحاب والجبال كلها جماد.. بس كل واحد بيشوف انعاكسه فيهم.. يعني السحر جوانا أحنا.. مش فيهم!

صمتت قليلا، ثم قالت بقلق:

ـ يابني ماتقلقنيش عليك.. اللي بيقولوا الكلام ده وهم داخلين عمليات بيموتوا بعديها!!

ضحك بشدة، وقال محاولا استعادة روحه المرحة:

ـ يا ساتر عليكِ وعلى فقرك.. حد يقول الكلمة دي في وشي كده!

وأكمل ما يشعره:

ـ ماتخافيش عليّ.. الواحد بس لما بيقعد في مكان لوحده كده ومستني حاجة، يقعد يفكر في كل حاجة..

ـ أعمل لك ايه يعني.. حاول تفك شوية وبلاش الخنقة اللي انت فيها ديه.. انت هتعمل العملية امتى؟

نظر لساعته ثانية وهو يقول:

ـ تلات أيام.. وخمس ساعات

قالت في حنان:

ـ معلش.. هتعدي أن شاء الله وترجع لنا زي الأول كده زي الحصان.. وتقرفنا بتريقتك ويلعبك كورة في كل الحصص!

بتلقائية شديدة، ذهبت عيناه إلى النيل وقال بهدوء:

ـ اللي أنا أعرفه أني أن شاء الله هرجع.. بس عمري ماهرجع زي ما جيت!

صمتت تماما، لا تدري ما تقول، فابتسم هو، وهو ينظر لأرض المستشفى من الطابق الرابع، والنسمة الباردة على وجهه، وهو يسألها سؤالاً يعرف رد فعلها عليه مقدما:

ـ تفتكري الطيور بتستمتع انها طايرة فعلا؟.. ولا زهقانة من تعب جناحتها ونفسها تتمشى شوية وتلاقي اللي يربطها بالأرض ويبقوا زينا؟.. وليه بنرمز دايما للحرية بأنها هتطير؟.. مين قال إن الطيران حرية؟..

قالت وهي تكاد أن تصرخ مازحة:

ـ يشفي الكلاب ويضرك يا بعيد.. بطل بقى الأفلام دي..

اقترب أكثر من السور، وهو يفكر في ذلك السؤال الذي حيره كثيرا.. ماذا سيحدث لو قفزت للحظات قليلة محلقا في الهواء؟.. لماذا ترتبط متعتنا دائما بنهاية سوداء، تجعلنا نتراجع عن كل ماهو مجنون؟.. ثم يسأل نفسه السؤال الأهم: هل تريد أن تحلق حقا؟.. هل تريد أن تشعر كأنك طير بلا أي قيود أو جاذبية؛ أم أنك تريد تلك النهاية السوداء، التي تنهي كل مراحل الجنون في ثوانٍ؟..

* * *

ألقى (أ) مفاتيحه على تلك المنضدة في تكاسل، وهو يغلق باب شقته خلفه في قوة..

تلك الشقة الباردة، التي ـ حتى الآن ـ لم يستطع أن يحب أي ركن فيها. ذهب لغرفته، ولم يهتم أن يغير ملابسه، وهو يستلقي على الفراش مغمضا عينيه في تعب..

متى يذهب ذلك الألم المستمر؟

كان ينظر لـ(سلمى) وهي تحاول أن تخرج من شفتيه أي كلمة حلوة.. أي كلمة مطمئنة.. ذلك الاستجداء في عينيها، كقطة جائعة تقف جانب قدمك منتظرة أن تلقي لها بقطعة من الطعام..

لكنه لا يستطيع..

شيء داخله توقف عن الحركة منذ فترة طويلة.. شيء ثابت.. ممل.. رتيب، يجعل كل شيء آخر بلا طعم أو معنى، فأصبح كل شيء بلا مذاق.. نفس الطعم الماسخ، الممل، الرتيب!

فتح الـ(لاب توب) الخاص به.. وفتح الـ(فيس بوك)، ذلك المرض

الاجتماعي الممتع، الذي أصبح جزءً لا يتجزأ من حياة البشر، والذي يتظاهر هؤلاء من يتظاهرون بالاختلاف الآن بأنهم لا يهتمون به!.. فيما مضى كانوا يتظاهرون بأنهم لا يهتمون بالراديو والتلفزيون، قائلين إنه يدعوا لتستطيح العقول..

ضحك ضحكة ساخرة، عندما تذكر صديقه وهو يقنعه بمنتهى الحماس أن (الفيس بوك) هو خدعة المخابرات الإسرائلية، لجمع كل المعلومات عن البلاد.. ودليله أن كل (فان بيدج) لابد أن تجد بها شخصًا واحدًا من إسرائيل أو اثنين.. وهي حقيقة. لكنه تذكر رده البسيط على صديقة، بسخرية سخيفة:

ـ مش فاكر أنا ان إسرائيل عملت لي (اد)..

المشكلة أنه حقا لو سلاح، فهو سلاح للجميع.. لأن كل المخابرات الأخرى ستعرف عنهم أيضا ما يريدون.. يكفي ضغط ذلك الزر السحري (لايك) على أي صفحة، وأصبحت جاسوسا محترفا!..

نظر لذلك المربع المستفز.. الحالة الشخصية، أو مايطلقون عليه الآن (ستيت) في القاموس الجديد، كأنها أصبحت كلمة أساسية في اللغة العربية، مثلها مثل (لايك) و(سي دي) و(ديسكات)!

المربع الذي يدعوك لكتابة أي شيء، أيا كان.. فرصة لأن تكتب عن نفسك شيئا ما، ويراه الآخرون.. وكم يحب البشر أن يتحدثوا عن نفسهم، في أي مناسبة كانت!..

كتب فيها، مستسلما لذلك النداء:

«ورقة في عرض البحر.. مكتوب عليها.. أنقذوني»

وضغط زر نشر دون أن يراجعها.. ولم تمر ثوان حتى وجد «لايك» من

(سلمى)، ثم صوت رنة (سلمى) المميزة.. ليرد متثاقلا بهدوء:

ـ أيوة..

ـ في أيه؟.. أيه ال(ستيت) دي؟

ـ مافيش حاجة.. حسيتها فكتبتها..

لتصمت هي قليلا، وألف سؤال يعتصرها، ولا تستطيع التفوه به.. تعرف أنها لو سألته لن تجد أجابة واحدة مرضية.. هو علمها ذلك.. ستجد الإجابة التي تريد أن تسمعها، لكنها لن تشعر بها!.. هو يعلم وهي تعلم؛ إذا فلماذا السؤال؟

قالت السؤال الذي نجح في أن يخترق مقاومتها العنيفة:

ـ بتحبني؟!

ليرد هو الرد القاتل:

ـ قلت لك كتير.. مادام بتسألي، يبقى أنا مقصر!.. ومادام أنا مقصر، يبقى ممكن أكون مابحبكيش..

لتصمت هي فترة أطول قليلا من سابقتها، في حين لم يبد عليه أنه ينتظر منها كلاما.. قالت بنفس النبرة التي تجعله يرى القطة بعينيها، التي تريد الطعام وتموء في استكانة:

ـ هو أنت هتتعب قوي يعني لو طمنتني بكلمة واحدة؟

رد بعصبية:

ـ ما أنا اتزفت قبل كده قلت لك إني عمري ما هسيبك.. عمري ما هامشي.. وان انت هتبقي مراتي وكل حاجة.. وأن المشكلة فيّ أنا.. أنا مابقتش باعرف أبقى رومانسي أو أعمل حاجات العيال الصغيرة.. أبوس

ايدك أنا مش ناقص.. أنا مش رايح في حتة.. وهافضل معاكِ عمري كله!

رغم تلك الطريقة الجافة والعصبية، إلا أنها سمعت من كلامه ما يطمئنها.. ابتسمت في حنان، لقد عرفته هكذا منذ البداية وأحبته؛ لكن ذلك الصدى الخفيف الذي يدوي في خلف عقلها.. ذلك الكائن المزعج الذي يصرخ فيها أن هذا إنسان لا يحب.. لكنها تكذب نفسها دائما وتصدقه. قالت، محاولة تهدئته:

ـ أنا عارفة والله.. بس أنت عارف الوسواس اللي بييجي للواحد ده.. اللي بيقول لي إن انت مش بتحبني ومش عاوز تكمل و..

قاطعها بعصبية لم تهدأ بعد، وهو يشعل سيجارة، أصبحت جزءً لا يتجزأ من شخصيته:

ـ ومليون مرة أقول لك.. أنا أكتر حاجة باصدقها هو الوسواس ده.. بيبقى ٩٩ في المية صح.. اسمعيه عشان ماتتوجعيش.. عشان لما يحصل أي حاجة وحشة ولو لا قدر الله سيبنا بعض، الوسواس ابن الكلب ده هو اللي هيقولك «أنا كان عندي حق.. والوجع اللي انت فيه وموتك ده أنت السبب فيه».. فساعتها مش هتلاقي حد تلوميه غيرك.. وديه أزبل حاجة ممكن يحسها بشرا..

صمتت، لا تدري أي شيء سوى أنه في تلك الحالة، وتريد أن تهدئه.. هي تعرف كم يتألم.. تلوم نفسها مئة مرة، لأنها لم تستطع أن تمسك أعصابها.. بالتأكيد هو بتلك العصبية بسبب موضوع العريس.. بالتأكيد لأي أسباب أخرى.. لم يكن من الصواب أن تقول ما قالت. صعد صوتها رقيقا معتذرا وهي تقول:

ـ ماتزعلش مني.. أنا آسفة..

صمت تماما وهو يزفر في حنق.. كيف استسلمت واعتذرت، وهو من يؤلمها بتلك الدرجة؟.. كيف لا تصرخ فيه وتخبره أنها لا تستحق منه تلك المعاملة.. لماذا لا تتركه؟.. لماذا لا تترك تلك الآلة الصدئة، التي لا تفعل شيئا إلا إصدار أصوات تؤلم كل من يسمعها؟.. كيف تثق بما يقوله، وهو شخصيا لا يدري لماذا يقوله؟..

يا لذلك الألم المستمر، الذي يقتل كل شيء آخر..

في يوم ما، ستشعر بكل ما تشعر به هي الآن.. ستأتي من تذيقك عذابها بهدوء.. ستعشقها، ولن تدرك حتى نصف ما تشعر.. ستكذب نفسك وتصدقها، وتكون هي من تطمئنك ولا تدري لماذا تطمئنك.. ستكون هي المتحكمة في كل شيء.. في انفعالك وحبك وغضبك.. ستريد أن تسمع منها كلمة طمأنة واحدة؛ ولن تجد.. ستحبك بربع قلب، كما تحب أنت (سلمى) الآن، تبتعد عنها كل يوم؛ دون أن تدري لماذا، وأصبحت تكره حبها لك، لأنك لا تستطيع حتى أن تلومها على شيء..

قال، محاولا أن يخفي ـ كعادته ـ كل ما به بتلك النبرة الهادئة:

ـ ماتتأسفيش على حاجة أنت ماغلطتيش فيها..

وصمت تماما، ليطلق رصاصة الرحمة:

ـ أنا بحبك..

ليسمع صوت نفسها العميق في رحلة للراحة، وصوتها الذي عادت إليه ثقة عمياء ـ بمعنى الكلمة ـ :

ـ وأنا بعشقك..

* * *

موجة من الضحك ارتفعت عالية، في ذلك الكافيه الراقي، مما جعل معظم الجالسين ينظرون لتلك المجموعة من الشباب والفتيات، يضحكون كأنهم وحدهم في المكان.. أربع فتيات وخمسة أولاد..

نظروا جميعا لـ (ج)، الذي كان من الواضح أنه مركز اهتمامهم، وقالت فتاة اسمها (علا)، وهي لا تستطيع أن تكتم ضحكتها:

ـ يخرب بيت عقلك.. أنت (علاء) كان مخبيك عننا فين؟

نظر لها (ج) مبتسما ابتسامة خفيفة، فقال (علاء) مازحا:

ـ عشان كنت عارف أنه هيفضحني كده..

قالت (علا) لـ(ج)، وهي تمسك بيد ولد جانبها يبتسم في سعادة:

ـ أنت ايه حكايتك بقى؟

لم يلحظ أحد تلك النظرة الغريبة في عينيه، التي اختفت بسرعة وهو يقول ساخرا:

ـ أنا يا ستي عندي ٢٤ سنة.. أعزب.. ومبسوط أني أول مرة اجي أقعد مع ناس زي العسل زيكو كده..

قالت (علا)، في حين بدا على ذلك الولد جانبها بعض الضيق الخفيف:

ـ أيوة يعني بتشتغل ايه؟

ابتسم ابتسامة من يتوقع الرد:

ـ رسام!

نظر الولد، وقد تلاشى الضيق من على وجهه، وهو يقول باسما بسخرية واضحة:

ـ رسام!.. هو في حد لسة بيشتغل رسام؟

أومأ (ج) برأسه بمعنى أجل، فاستطرد الولد في سخرية أكبر:

ـ وناجح على كده؟

لم تتزحزح ابتسامة (ج) لحظة وهو يقول:

ـ على حسب مفهوم النجاح بالنسبة لك.. أنا بالنسبة لي نجحت في أني ألاقي حاجة عاوز أتعب عشانها ولاقي نفسي فيها.. لكن لو مفهوم النجاح بالنسبة لك فلوس ومركز، يبقى أحب أوضح لك أني فاشل تماما!..

ضحك من معه وضحك معهم.. نفس التساؤل، بنفس السخرية، بنفس الرد.. كأنما خلق البشر في «بلوكات» صناعية.. لو كان للبشر نكهات، لأصبحوا جميعا بطعم الملح.. وقليلا منهم نجح في أن يكون بلا طعم.. فاختلف!.

اعتدل في جلسته لتقول (سمر)، إحدى الفتيات:

ـ وبترسم كويس على كده؟

نظر (ج) لحظات لـ(علا)، وأمسك منديل صغير، وأخرج قلم جاف من جيبه، ووضع المنديل وفرده جيدا على المنضدة، ثم أغمض عينيه..

وبدأ يرسم!..

شيء ما جعل كل من حوله يصمت تماما..

تأملته العيون في فضول ولهفة، وخيل إليهم أن هناك هالة ما حوله، جعلتهم يراقبونه بذلك الشغف..

مرت عشر دقائق كاملة، لم ينطق أحدهم بحرف واحد، ولم يفتح هو عينيه لحظة، حتى توقفت يده عن الرسم تماما، وفتح عينيه بهدوء، وتأملهم

لحظات مبتسما في سخرية، ثم نظر لـ(علا) وأعطاها المنديل بهدوء وهو يقول:

ـ اعتبريه «سوفونير» عشان تفتكري اليوم ده..

نظرت (علا) لـ(أحمد) صاحبها في تساؤل، في حين أحمر وجهه هو، لكنه لم يقل شيئا، فمدت (علا) يدها في هدوء، تمسك المنديل وتنظر فيه..

وتتسع عيناها في ذهول..

كانت تحدق في صورة طبق الأصل لها.. بعينيها الواسعتين، وأنفها الدقيق، وفمها الواسع، وجسدها الرفيع.. رغم أنها محجبة، لكنه رسم شعرها بدقة، كأنما رآها من قبل دون حجاب!.. يخرج من ظهرها جناحان، وفي يدها أساور حديدية تربطها بالأرض. رغم أن الرسم كله بلون أزرق واحد، إلا أن هناك اختلاف في درجات الأزرق، وظلال خفيفة لا يعرف كيف يرسمها بتلك الدقة إلا محترف..

وكانت في الرسم.. تبكي.. رغم تلك الضحكة الرائعة على شفتيها..

شعرت بشئ غريب، جعلها تنسى كل شيء وهي تنظر للصورة.. شعرت لأول مرة أن هناك ذلك الجماد الذي في يدها، لكنه.. يأخذها لعالم آخر!..

خطف (أحمد) المنديل في سرعة جعلتها تنتفض، ونظر له قليلا، ثم قال لـ(ج) في استهانة:

ـ ايه الخرا ده؟

ابتسم (ج) في هدوء، وقال مازحا:

ـ أنا عارف أنك هتقول كده يا باشا.. أصل بعيد عنك، الواحد في الفن

بالذات بيشوف باللي جواه!

ضحكوا جميعا، وضحك هو وهو يقول بسرعة:

ـ أنا باهزر معاك.. اوعى تكون بتزعل من الهزار؟

لم يرد عليه، في حين ضحك الآخرون أكثر، وهم يرون رسمته ويعلقون عليها، فيهم من أنبهر، وفيهم من قال إنها عادية جدا.. وتقبَّل هو كلامهم بصدر رحب..

(علا) هي الوحيدة التي أثار الرسم خوفًا مبهم داخلها، وهي تنظر لـ(ج)، الذي يمزح ويسخر من الناس كأنها لم يفعل شيئا على الإطلاق..

ربها لأنها شعرت لأول مرة أنا هناك من يعرفها جيدا..

ربها أكثر من نفسها!..

* * *

ارتفعت يد شاب في تلك المحاضرة، فأشار له (أسامة) بابتسامته الهادئة، ليقول الشاب:

ـ في (أ) احنا بدأنا بنهاية علاقة.. وفي (ب) ماعرفناش أي حاجة.. كل ده عادي.. بس في (ج) كده احنا بدأنا علاقة رومانسية وحصل انجذاب ما بين طرفين.. أنا مش عارف أنت دلوقتي في أي مرحلة.. أنا اتلخبطت!

صمت (أسامة) قليلا، لا شيء يسعده أكثر من الأسئلة.. المحاضرات التي تمر دون سؤال واحد، يعرف أن كل من سيخرج منها سيكون مثله والبعير، لن يخرج بنتيجة.. تلقى المعلومة في صمت تام، وعندما عرف أنه لا يوجد امتحان، اكتشف أنه لن يحفظ شيئا، فلم يحاول أن يفهم شيئا..

نظر للشاب وقال:

ـ اسمك أيه؟

قال الشاب في هدوء:

ـ (محمد حسن)..

قال (أسامة) وهو يدون اسمه في ورقة:

ـ ماشي يا عم (حسن)..

ونظر له مكملا بابتسامة:

ـ هارجع وأقول لك إن احنا لسة في مرحلة البداية.. البداية اللي مش لازم تكون أصلا بداية.. أنت لو فكرت في بداية الكون، هتكتشف ان البداية عمرها ما كانت لما آدم اتخلق.. حتى لما تيجي تقول «هو ايه اللي كان موجود قبل آدم وقبل الملايكة والشياطين»، هتلاقي علماء الدين بيقولوا لك ماتفكرش في الحاجات ديه عشان هتتوهك وتخليك تكفر، فانت تخاف على طول وتبطل تفكير..

شعر بثقة تملؤه وهو يكمل:

ـ كل اللي حصل ده هو الحالة اللي بتخلي قلب البني آدم مستعد.. الحب مش بيبدأ بنظرة ولا ابتسامة ولا الحركات ديه.. الحب اللي بجد هو اللي الدنيا عمالة تهيئك ليه من ساعة مااتولدت.. بكل حاجة وحشة وكل حاجة حلوة.. بعلاقات بايظة وجراح مابتتنسيش.. الحب بيبدأ بجد لما القلب يبدأ يسأل سؤال صغير كده قوي بيفرق في كل حاجة.. لما بيسأل: «هو أنا مش هارتاح بقى؟».. الحب أصله استعداد نفسي.. عشان كده مرحلة البداية هي أهم مرحلة، بكل اللخبطة اللي فيها، لأنها هي اللي بييجي فيها لحظة معينة بنقدر نستسلم لأننا ممكن نتوجع تاني!

لاحظ نظرة البلاهة على وجوههم، فابتسم في هدوء وقال:

ـ حد فيكم فاهم حاجة؟

أومأ بعض المجاملين بالإيجاب، في حين تولى معظم الطلاب الصرحاء الرفض، فضحك وقال:

ـ عامة.. واحدة.. واحدة..

ونظر للملف الذي أمامه وقال:

ـ نخش في (د)..

* * *

«فوووووووووووووووووووووو»

قالها (د) بصوت عالٍ، ليضحك كل من حوله، فيبتسم هو في سعادة حقيقية، وهو يمسك تلك الطائرة الصغيرة، قالت الفتاة التي تجلس أمامه:

ـ ايه الصوت العبيط ده؟

قال هو بحماس شديد:

ـ ده صوت الطيارة..

نظرت الفتاة للأرض، وهي تلاعب ذيل فستانها وقالت:

ـ أنا مابحبش الفيونكات.. بس ماما بتحب تعمل لي فيونكات كتير..

لم يدر بماذا يرد؛ ثم تذكر، فاتسعت عيناه في حماس وقال:

ـ أنا عاوز أطلع طيار.. وأركب طيارة.. وأطير في السما.. وأعمل فووووووووووووووو..

لم تضحك تلك المرة، فشعر بإحباط قليلا، ثم قال مواسيا إياها:

ـ أنا كمان مابحبش الفيونكات على فكرة..

ابتسمت الفتاة وهي تنظر له، في حين جاءت أمه ونظرت لهم، وقالت بحسرة:

ـ سبع سنين ومغلبني بموضوع الطيارات ده.. هتفضل شقي كده؟

* * *

ارتفعت أيادٍ كثيرة تلك المرة، فصاح فيهم (أسامة) ضاحكا:

ـ أيوة سبع سنين.. وهنفضل نحكي قصته، عشان عارف الاعتراضات اللي هتيجي..

نزلت الأيادي في لحظتها، فقال هو ضاحكا:

ـ هو مين فينا اللي دكتور عاوز أعرف؟ المصريين دول لازم يعدّلوا على أي حد!

ضحكوا في هدوء ضحكة مجاملة، فأكمل:

أول حب في الحياة هو اللي بيحدد البني آدم ده ايه أصلا وهيكمل ازاي!.. اصبروا.. وعامة هو قصته مش هتاخد وقت..

علت ابتسامات ليست مجاملة تلك المرة..

فأكمل..

* * *

صاح هو في اعتراض، مشيرا للفتاة:

ـ أنا مش شقي.. (مروة) هي اللي مش بتحب الفيونكات..

نظرت له (مروة) بغضب، وقالت:

ـ أنا بحب الفيونكات قوي.. يا كداب

ضحكت الأم في حنان شديد، وهي تمسك بيده وتقول:

ـ يلا يابني.. لازم نرجع البيت عشان باباك مايزعلش..

قال بصوت خفيض، وهو ينهض معها مضطرا:

ـ مايزعل.. أنا عاوز ألعب مع (مروة)..

تجاهلت الأم غمغمته، في حين نظر (د) لـ(مروة)، وهو يلوح لها بيده حزينا، في حين هي قلبت شفتها السفلى، معبرة عن ضيقها منه، ثم لم تلبث أن أدركت أنه سينصرف، فلوحت له بسرعة وهي تبتسم قائلة:

ـ باي باااااااااااااااي..

سلمت أمه على جارتها، وخرجا من البيت في هدوء، في حين شعر (د) بالندم قليلا، فنظر لأمه قائلا:

ـ على فكرة (مروة) بتحب الفيونكات، وانا اللي كنت باكدب..

نظرت له أمه نظرة لائمة، ثم قالت بهدوء:

ـ يبقى عشان كدبنا هنقعد على الـ(نوتي تشير)..

زم شفتيه في غضب، لكنه لم يتكلم، وهو يدخل شقتهم مسرعا ليجلس في ذلك الركن في الحائط، ويصمت تماما، منتظرا أن تنتهي فترة معاقبته.. فضحكت الأم في هدوء، وذهبت للمطبخ مسرعة..

* * *

«يا خلاااازيييي»..

قالتها إحدى الطالبات في سن الثلاثين بصوت عال، بتلقائية، فالتفتوا

إليها جميعا، فضحكت معتذرة، ليضحكوا معها..

ابتسم (أسامة) في هدوء وهو يقول:

ـ هو ده رد الفعل اللي مستنيه..

وأكمل، بعد موجة الضحك التي شعر منها أن هناك استمتاعًا بالمحاضرة، وأنها خفيفة على قلوبهم..

ـ كده عدينا بأول مرحلة، وهي مرحلة البداية.. معظمكم لسة مش فاهم حاجة.. في منكم اللي زهق.. بس صدقوني، من أول اللي جي الدنيا هتبدأ تتظبط معاكو.. ومن الآخر كده.. هنخش في المفيد..

وذهب للسبورة، وهو يكتب ويقول ما يكتب:

ـ المرحلة التانية..

* * *

٢ ـ اللقاء

قيل في ما مضى أن بمجرد نظرة العين يحدث العشق.. كانوا كاذبون!

«دي المرحلة الوحيدة اللي لولا اني باحث علمي ومايتفعش أقول المصطلحات دي في أبحاثي.. كنت سميتها مرحلة «المسخرة»..»

قالها (أسامة) باسما في مرح، وأكمل:

ـ مرحلة خرق القواعد.. مرحلة الجنان.. مرحلة تحولنا لكائنات تانية.. ممكن فعلا نتشبه كلنا بعالم الحيوان، لما كان بيقول «وفي موسم التزواج، تصدر أنثى الكلب رائحة من مؤخرتها لتجذب الذكور».. كلنا بنتحول لحاجة زي كده، بس على طريقة «بني أدميني» شوية..

وصمت ليأخذ نفسه، ولأنه تعلّم أن الصمت المفاجئ في المحاضرات يجعل من شرد قليلا يعيد تركيزه.. وأكمل:

المرحلة دي هتطول معانا شوية.. بس هي من أهم المراحل في الـ «هيبتا».. عشان..

وصمت قليلا، وأكمل:

ـ وليه الاستعجال... اللي لازم نعرفه دلوقتي ان المرحلة دي بتتقسم لتلات مراحل.. أولهم.. (ما قبل المحاولة)..

* * *

تأمل (أ) كل شيء حوله..

كل شيء يبدو ثابتا للغاية..

ذلك الإحساس، الممل في حد ذاته، أنه لا جديد سيأتي، ولو بعد حين..

لكن ماذا تنتظر أنت الآخر؟..

منذ متى وجدت من ينظر لملعقة صغيرة، متوقعا منها أن تطور نفسها، وتبدأ في تعلم التقطيع مثلا؟!

هل ذلك الإحساس بالفراغ منطقي؟ أم أنك استعبدته؟..

نظر (أ) للشارع، الخالي في ذلك الوقت، وهو ينفخ سيجارته جالسا في الشرفة في الدور التاسع، على مقعد بلاستيكي أخضر، ساندا قدمه على سور الشرفة، مميِّلا المقعد للوراء قليلا..

«أنا شفت النهارده «أنتريه» روعة.. صورتهولك عشان تشوفه وتقولي لي رأيك فيه»

آه.. صحيح..

ومعه هاتف!..

رد بربع عقل:

- كويس.. ابعتي لي الصور على «الفيس»..

خطرت له فكرة، لم تعد تبدو بذلك الجنون السابق.. سؤال جاء في عقله سريعا وطمسه.. هل أصبحت يائسا لتلك الدرجة، لتشعر أي شعور جديد؟.. هل أصبحت فكرة كتلك بسيطة؟ أم من كثرة ما تأخذ من مسكنات أصبحت لا تشعر بشيء؟!..

لم يرد على نفسه، فقط قال لـ(سلمى) في هدوء:

ـ (سلمى).. أنا هاخش الحمام.. دقيقتين وهاكلمك تاني..

لتصمت هي قليلا، ثم تقول في محاولة لجعل صوتها مرحا:

ـ بس ماتعملش زي كل مرة وتنسى، وأفضل انا مستنية بالأربع ساعات!

أغلق هو دون أن يرد.. دون أن يسمع من الأساس.. صعد صوت هاتفه بأغنية يعشقها، اختارها.. ونهض بهدوء شديد، وهو يرفع قدمه واقفا على الكرسي.. ويمد قدمه بشغف أكثر منه قلق.. ليجعل قدمه اليمنى تقف على السور!..

نظر لكل ما هو تحته، من هذا الارتفاع الشاهق.. كل شيء يبدو صغيرا لدرجة مريحة!.. البشر والعربات والمشاكل والهموم.. كل شيء في غاية الصغر. ربما لهذا يعيش أهل الجنة في راحة، عندما يدركون أن هناك أشياء أكبر بكثير من تلك التفاهة، المسماه «دنيا»..

استند على قدمه اليمنى، ليصعد بجسده كله على إطار الشرفة، العريض قليلا، ساندا بيده على سقف الشرفة، مزيدا من حد الجنون قليلا!..

ضرب الهواء جسده بشدة..

نسى للحظات كل ما يتعلق به، وبيأسه، وفراغه، وملله..

وابتسم.. !

ازدادت سرعة الهواء وهي تضرب جسده، فأغمض عينيه وهو يضحك بشدة.. يمر برأسه سؤال سخيف.. إن كان هذا ما يسعدك، لماذا لم تذهب لمدينة الملاهي قليلا، وتريح قلوب كل من يعرفك؟!.. ولكنه يعرف أن هناك شيئا ما أعمق.. في الملاهي هناك، ذلك العنصر الذي يفسد كل شيء..

الأمان!..

نسي كل شيء، وهو يزيد حد الجنون قليلا في استمتاع خبيث، فيترك سقف الشرفة المستند عليها، ويفرد يديه جانبه بطولها.. وشعر بجسده يميل للأمام قليلا.. لكنه لم يعبأ..

السقوط الحر..

ما الجديد فيه؟..

منذ أن خلقت، وأنت تسقط سقوطا حرا..

كل ماربيت عليه.. كل ما تعشقه.. كل أخلاقك وأحلامك و «كمالك».. يتناقص تدريجيا حتى لحظة الاصطدام الأخيرة، وهي الموت!..

شعر بجسده يتمايل للأمام وللخلف في بطء، على نغمات الموسيقى.. لكنه لم يعبأ.. فقط..

ترك نفسه يشعر..

* * *

ابتسم (ب) في خجل، حاول أن يداريه بسخرية، وهو يرفع بنطاله وينظر للممرضة، قائلا في ابتسامة مرحة:

ـ شكرا.. حقنة شرجية روعة!

ضحكت الممرضة في شفقة، وقالت:

ـ معلش.. أوامر الدكتور..

ضحك (ب) ضحكة عالية وهو يقول:

ـ أنا مش متضايق.. بس كل مرة آخد الحقنة عشان العملية.. العملية تتأجل وأبقى خدت الحقنة على الفاضي!

ومال عليها مكملا بأسلوب ساحر مازحا:

ـ دانا بدأت أقتنع يا (فاطمة) انك عارفة انها هتتأجل بس بدأتِ تعجبي باللامؤاخذة!

ضحكت بشدة في حرج، وهي تضربه في كتفه.. وقالت:

ـ مش هتبطل لماضة بقى؟!

هم بقول شيء ما، لكن شعر بشيء ما، فذهب للحمام بسرعة، مدركا أنهم جميعا سيقدرون قلة ذوقه..

قال لها زميله في الغرفة، العقيد (هشام)، متسائلا بصوت عالٍ حتى يسمعه:

ـ هو صحيح ليه كل شوية العملية بتتأجل؟..

قالت الممرضة بأسف:

ـ الدكتور من أشهر الدكاترة في مصر.. في حالات طارئة وصعبة جدا بتجيله فبيضطر يأجل العملية دي شوية..

قال (ب) في سخرية من داخل الحمام:

ـ وماينفعش ياختي يعرف الحالات الطارئة دي قبل ماخد الحقنة؟.. عشان الموضوع بدأ يوصل لإدمان!

سمع ضحكاتهما، لكنه لم يكن يبتسم..

ثلاثة أسابيع في تلك المستشفى، فقد كل ما يتعلق بآدميته تماما..

لم يعد هناك حرج من شيء.. أصبح جسده عرضة لأي شخص، إذا كان طبيبا أو ممرضا أو حتى طالبًا جامعيا في الطب، يمر في جولات كي يتعلم..

مل الأصدقاء والأهل من طول فترة الإقامة، حتى شعر أن جميعهم يريدون له أن يدخل العملية، عاش أو مات فيها.. المهم أن تكون هناك أحداثًا..

شيء ما.. دائما ما نفقده دون أن ندري.. في لحظات الانتظار..

وقوع البلاء.. ولا انتظاره..

خرج من الحمام، ناظرا لهم في هدوء، ثم قال باسما:

- أنا هاطلع البلكونة أشم شوية هوا..

قالت الممرضة في حنان، كمن تنظر لأبنها:

- براحتك يا حبيبي.. انشطفت؟

نظر لها في استنكار وهو يقول:

- وحياة أمي كل مرة أقول لك إني ١٧ سنة.. واتعلمت الموضوع ده من زمان!

ضحكت وضحك زميله في الغرفة، ليخرج هو للشرفة كالمعتاد..

لا يختلف السحر أبدا، سواء ليلا أو نهار

تنتشر آشعة الشمس متلألئة على صفحات المياه، تعلن عن انكسار روعتها أشلاءً، على رقة الأمواج الخفيفة..

دائما ما نجد في الطبيعة شيئا.. ونهايته.. ولذلك الشيء روعة.. ولنهايته أيضا روعة!.. كل شيء موزون بدقة، تجعلك تؤمن بالله مرات عديدة في اليوم الواحد.. كل شيء دقيق وموزون، عدا ذلك الكائن الذي خلق بما يسمى (عقل).. فجعل كل شيء لا يمت للميزان بصلة!..

سمع نحنحة جانبه، فالتفت بشرود.. ليجدها واقفة..

هزيلة الجسد هي.. تدور حول عينيها هالة سوداء خفيفة، تعلن عن انتصار ضعفها عليها.. بيضاء البشرة لحد الذهول، كأنها لا تسري في عروقها نقطة دماء.. ترتدي ثياب المستشفى، مع بنطال خفيف، لأن ـ في العادة ـ رداء المستشفى قصير، وقوة الهواء تجعله يلتصق بجسدها ويتطاير.. عيناها بنية أو عسلية، ذلك المزيج المصري الأصيل.. وصلعاء تماما!.. لكن ذلك لم يأخذ من جمالها الهادئ شيئا..

وتنظر له مبتسمة في حرج!..

أدرك أنه أطال النظر إليها، فتنحنح هو الآخر، وقال:

ـ ايه الأخبار؟

ابتسمت هي، وقالت بصوت رقيق:

ـ أنا كويسة الحمد الله.. انت عامل ايه؟

استند على سور الشرفة وهو يقول:

ـ لسة واخد حقنة شرجية.. فلو طلعت أجري في أي وقت ماتخافيش..

ضحكت في خجل، في حين لام هو نفسه قليلا.. فعلا المستشفى جعلت حركة معدته شيئا من الطبيعي مناقشته في أول لقاء مع أي أحد. قالت هي بهدوء، وهي تسند على السور مثله:

ـ عادي يا باشا.. كلنا مرينا بالمواضيع دي..

قال لها مادا يده، دون أن ينظر لها:

ـ (ب).. ١٧ سنة..

مدت يدها له قائلة:

ـ (سارة).. ٢٠ سنة..

وأكملت ناظرة لطوله الشديد قائلة:

ـ شكلك مايديش ١٧ خالص!

ابتسم ابتسامة هادئة دون أن يرد، فأكملت هي:

ـ أنا بس كنت عاوزة أعتذر لك.. عشان أنا السبب في أن عمليتك اتأخرت.. وهتتأجل تاني النهارده..

التفت لها في تساؤل.. كيف لتلك الفتاة رائعة الجمال أن تكون هي «الحالة الطارئة»؟.. توقع أن تلك الحالات عادة ما تكون راقدة على فراشها، مخضبة بالدماء.. ثم أدرك بعدها الجزء الثاني من جملتها، فصاح مستنكرا:

ـ نعم؟.. هتتأجل تاني النهارده؟؟..

انتفضت من صيحته، وتراجعت للخلف قليلا، في حين التفت للنيل هو، وقال:

ـ يا ولاد الكلب!

صاحت بصوتها الرقيق في ندم:

ـ أنا آسفة والله.. أنا كنت فاكرة انهم قالوا لك.. معلش أنا عارفة أن..

قاطعها قائلا في أسى:

ـ أنا مش مشكلتي أن العملية اتأجلت بسببك.. ألف سلامة عليكِ طبعا!.. أنا مشكلتي في أم الحقنة اللي عمالين يدوهالي دي!

صمتت لحظات، ثم لم تستطع أن تمنع تلك الضحكة التي خرجت منها دون قصد، فنظر لها لحظات مبتسما هو الآخر في هدوء، لم يلبث أن تحول

لضحكة صافية منه هو الآخر..

مازال داخله سؤال بسيط، شغله عن كل ما فيه من ملل..

كيف تكون (سارة) هي الحالة الطارئة؟

ولماذا لا توجد شعرة على رأسها؟..

ولماذا يشعر بأنه يعرفها منذ زمن؟!

* * *

نظرت (علا) للرسم على المنديل في شرود..

لن يصدقها أحد، عندما تقول إن هذا ما تتخيل نفسها فيه قبل نومها..

الجناحين.. والقيود.. والحزن.. والحرية..

أو الأمل في الحرية!..

وذلك التوقيع بإسمه، المستفز الخاص به، في آخر الرسم ينظر لها ببرود يستفزها!..

لمدة نصف ساعة، تأملت في الرسم وهي لا تعرف حتى فيما تفكر.. عقلها تحول لصفحة بيضاء تماما، لا يوجد فيه مكان لخاطرة!.. زفرت في قلق وهي تقلب المنديل في يدها، ثم توقفت تماما وهي تنظر لظهر المنديل.. وما كتب عليه..

لماذا تراه لأول مرة الآن؟.. وكيف لم تره يكتبه في «الكافيه»؟!

«إلى عين نفسها تدوق طعم «الروح»..»

وجانبها، كتب بريده الإليكتروني الشخصي!!..

ما تلك الوقاحة؟؟..

استشاطت غضبا في لحظة.. ماذا يظنها؟ ماذا يعتقد في أخلاقها، حتى يظن أنها ستضيفه وهي مرتبطة بشخص آخر؟!..

تذكرت (أحمد)، فطلبته على الهاتف. لابد أن يعرف حتى يتصرف معه، جرس طويل، ثم صوت (أحمد) يصيح بسبب ذلك الزحام حوله:

ـ (علا).. عاملة ايه؟

قالت له بغضب:

ـ (أحمد).. في حوار مهم عاوزاك فيه..

قال لها وهو يضحك:

ـماينفعش نأجله شوية يا حبيبتي.. أصل أنا الكينج في البولة والعيال متعصبين..

قالها بفخر صبياني سخيف.. لماذا يصر الرجال على الفرح بأي فوز مهما كان، كإثبات للرجولة؟.. قالت بعصبية:

ـ لأ مش هينفع..

سمعت صوت أحد أصدقائه يقول مستسخفا:

ـ ماينفعش نأجله شوية يا حبيبتي؟.. ماهي لازم تركبك يا روح حبيبتك..

وصوت ضحك كل من حوله، لتجد صوته هو يتبدل قليلا إلى الصرامة وهو يقول:

ـ خلاص يا (علا).. قلت بعدين..

قالت بسخرية:

ـ فعلا؟.. بتشد عليّ أنا بدل ما تلم الأهبل اللي جنبك ده؟

صاح متأففا:

ـ يوووووووه.. يلا سلام يا (علا)..

صاحت:

ـ سلام..

ترك الهاتف دون أن يغلقه، فسمعته يصيح في أصدقائه:

ـ الله يلعن أبو الارتباط عاللي عاوز يرتبط.. مش عارف العب بولة استميشن بمزاج.. بلا خرا!..

ليضحك أصدقاؤه بشدة، فتغلق هي الهاتف في عصبية، وتجلس على جهازها لتفتح الـ (ماسنجر)..

* * *

قال (أسامة) بابتسامة:

ـ نصيحة لكل ذكر على وجه الأرض.. إياك تضايفها.. أو تفتكر إن وجعها.. سهل!..

* * *

كتبت بريده الشخصي.. وضغطت زر إضافة في حسم.. ولم تمر ثوان، حتى وجدت قبول الإضافة، مع رسالة منه:

ـ كنت مستنيكِ..

زادتها كلمته غضبا، فكتبت:

ـ أنا مش ضفتك عشان حلاوتك.. أنا ضفتك عشان أقول لك إنك حيوان!..

ليجاوبها رد زادها غيظا:

ـ ما انا عارف!..

* * *

هل يترك للجاذبية أن تؤدي نداء الطبيعة عليه؟..

هل يصبر حقا، حتى يقرر ربه أن ينهي حياته؟.. أم ينهيها هو الآن مرتاحا؟..

كيف أصبحت ميولك انتحارية الأن؟.. وفجأة؟.. وأنت واقف على ذلك السور، والهواء يضرب كل شعرة فيك، ويعطيك إحساسا لم تشعر به من قبل..

تلك الموسيقى..

صوت الكمان، الذي يدخل قلبك في كل لحظة أينما سمعته..

حرك كتفاه بسرعة بطيئة نسبيا، متناغما مع الموسيقى.. مغمض العينين.. داخله سؤالان غاية في الأهمية..

الي أي حد يمكن أن أصل؟..

ولماذا لم أقع حتى الآن؟..

ماذا ينتظر القدر؟..

بل لماذا ينتظر هو أصلا..

ذلك الألم المستمر.. الذي لا يهدأ..

هل سيرتاح منه أخيرا؟..

هل.. سينهيه بيده؟..

لماذا ينتظر الموت؟

لقد مات منذ وقت طويل..

ولم يتبق داخله إلا ألم سخيف..

ترك جسده يميل للأمام قليلا.. وهو يفتح عينيه، ليلقى نظرة أخيرة على كل من حوله.. داخله كلمة واحدة فقط..

أنا..

استسلمت..

* * *

قال (أسامة) بنبرة هادئة:

ـ اسم (ما قبل المحاولة) اسم ممكن يكون ناشف شوية..

* * *

انطلق (د) راكضا، وهو يضرب جرس شقة جارتهم جرسًا مستمرًا.. لتفتح له أم (مروة) ضاحكة، ليركض هو داخل الشقة دون استئذان صائحا:

ـ (مروة).. جبتلك حاجة معايا..

وعندما دخل غرفتها، ووجد فتاة أخرى ومعهم ولدين.. صمت تماما..

وهو يشعر بشيء غريب عليه.. شيء لا يفهمه..

* * *

أكمل (أسامة):

ـ اسم المرحلة دي المفروض يبقى اسم أحلى من كده بكتير قوي..

* * *

كتبت (علا) في عصبية:

ـ بتضحك على ايه يا حيوان..

ليرد (ج) بهدوء شديد، ظهر حتى في حروفه:

ـ عشان أنت بتكدبي على نفسك قبل ما تكدبي عليَّ..

كتبت، وهي تكاد تحطم لوحة المفاتيح:

ـ يابني أنت بتتكلم كأنك فاهم الدنيا واللي فيها.. أنت تعرف ايه عني أصلا؟

ليصمت هو قليلا.. ثم تظهر لها رسالة، جعلتها تتراجع للوراء مذهولة..

فقد كتب:

ـ اني بحبك!

* * *

قال (أسامة):

ـ المرحلة اللي الواحد بيخون كل حاجة عاهد بيها نفسه قبل كده.. كل وجع اتوجعه، وكل قرار قرره بأنه مش هيسلم قلبه تاني لحد.. بيخون الخوف من الجرح.. بيخون عقله.. بيخون حتى نفسه!

* * *

شيء جعل (أ) يعيد يده بسرعة، لتستند على سقف الشرفة، قبل أن يقع بثوان..

في ذلك المبنى البعيد قليلا عنه؛ لكنه على ناصية شارعه بالضبط.. كانت جالسة هناك.. على سطح ذلك المبنى، تشرب سيجارة.. تجلس بحيث قدمها تتدلدل للخارج، وتحركها كطفلة صغيرة..

وتنظر له!..

لا يرى ملامحها بسبب بعد المسافة، لكنه يستطيع فقط أن يعرف أنها تشاهده..

ليست قلقة.. ليست خائفة..

فقط..

تتأمله..

كما اعتاد هو أن يتأمل كل شيء..

بلا أي مشاعر..

على الإطلاق..

* * *

قال (أسامة):

ـ .. ازاي؟.. ازاي القلب بينسى كل حاجة ويسلم نفسه كده؟.. وازاي بتحصل في لحظة واحدة من غير أي مقدمات؟.. أي حد قال لك إنه خد وقت عشان «يحس» بالحب كدب عليك.. أو ماحبش أساسا.. لأن دايما ـ من غير استثناءات ـ اللي بيحب بجد.. أول مابيشوف حبيبه بيحس

بحاجة.. مهما كانت صغيرة.. مهما كانت ولا حاجة.. بيحس ان اللي قدامه ده.. هيبقى حاجة مختلفة..

* * *

شيء ما جعل (ب) يتجه للممرضة، ويقول بصوت خافت، كمن يتفق على خطة شريرة:

ـ (فاطمة).. هي مين اللي في الأوضة اللي جنبي وأجلتو عمليتي عشانها دي؟

قالت (فاطمة) بشفقة:

ـ دي (سارة) يا حبة عيني.. رابع عملية ورم في المخ تعملها..

لم يستطع منع اندهاشه وهو يقول:

ـ بس دي عندها ٢٠ سنة!

قالت بعينيها الطيبة:

ـ ادعيلها بس ان ربنا يقومها بالسلامة.. عشان الدكتور شخصيا مش متطمن المرة دي..

شيء ما جعله يتركها، ويتجه لغرفتها مسرعا، رغم آلامه الشديدة، ليجد سيدة عجوز تبكي، استنتج أنها أمها، واستنتج أيضا أنها قد ذهبت لإجراء العملية..

وشعر شعور لم يصدقه..

وغير منطقي..

أنه افتقدها!..

* * *

قال (أسامة):

ـ مرحلة أن كل حاجة مش منطقية.. كل حاجة ماتتصدقش.. كل حاجة بسرعة قوي.. اللحظة اللي بتلاقي فيها تعريف بسيط لنفسك.. اللحظة اللي اتخلقت لها أصلا.. إحساس أنك ناقص «حتة»..

* * *

كتبت في انفعال:

ـ أنت مجنون؟...

ليكتب (ج)، كأنما يحفظ ما سيكتبه:

ـ هو أنا قلت إني عاوز ارتبط بيكي دلوقتي؟.. انا بقولك معلومة بسيطة جدا.. أنا بحبك.. بس كده..

ضحكت في استهانة وكتبت:

ـ وبعدين؟

ليكتب هو بحروف ملأتها الثقة:

ـ هاخليكِ تحبيني!

* * *

هبط (أ) من سور الشرفة في سرعة، وهو يتأمل مذهولا تلك الفتاة الجالسة على السطح ترمقه مباشرة. شعر أنه يتخيل.. أنه في حلم أو شيء من هذا القبيل.. رفع يده ملوحا لها..

ليجد يدها ترتفع مفرودة، وتحركها بالقرب من رأسها كالتحية العسكرية... فابتسم في بلاهة، ليجدها تنهض وهي تنظر له، ثم تقف على

السور الرفيع قليلا، جعلت قلبه يخفق في خوف مفاجئ عليها، ليجدها تفرد ذراعيها وتمشي على السور، كمن يمشي على الحبل.. لكنها تمشي بمنتهى الاتزان، ودون قلق أو خوف..

ظل يتأملها، كمن يتأمل ملاكًا بنفس الانبهار، ليجدها تلتفت إليه فجأة، مشيرة له بعلامات حاول أن يفهمها.. علامة بمعنى الجنون.. ثم ضمت يدها وفردت إبهامها ـ وأنزلته لأسفل..

ابتسم عندما ترجمها في عقله..

«جنانك.. وحش»..

وأخرجت لسانها له في طفولة، وهي تهبط من على السور، وتختفي من أمام عينيه في ثوان..

لكنه ظل يحدق بالمكان لفترة طويلة..

* * *

قال (أسامة)..

ـ مرحبا بكم.. في مرحلة «الوقوع في الحب».. أو مرحلة «كيوبيد».. أو مرحلة الجنان.. سموها زي ما تسموها..

والتفت لهم قائلا بحماس:

ـ كتير مننا مش بيفهم ايه اللي بيحصل له.. بس أنا من رأيي ـ شديد التواضع ـ أن ربنا خلقنا كلنا زي مااحنا خلقنا كل حاجة.. عاشق.. ومعشوق..

وأكمل ببسمة:

ـ كل مسمار.. ليه المعشوق بتاعه، اللي لو صح، عمره ما يفك أو يتشد

بعيد عنه أبدا.. الفكرة ان الأحاسيس بتتشابه.. في ناس كتير بنفهم منها غلط ان هم دول «معشوقنا».. بس لما بنعرفهم أكتر.. بنكتشف قد ايه هم مش مناسبين.. «بنلقلق» فيهم.. بنحس ان المكان مش بتاعنا وكل حاجة ناقصة.. بس هنوصل للنقطة دي بعدين.. خلينا في مرحلة الوقوع.. حد فيكم يقول لي.. مين فيكم حصل له كده لحد دلوقتي؟..

وابتسم في رضا، عندما ارتفعت معظم الأيادي في حماس شديد..

وتتسع ابتسامته وهو يقول:

ـ حد فيكم فهم أي حاجة؟

هبطت الأيادي كلها مرة واحدة، ليضحك هو قائلا:

ـ يبقى أنا نجحت..

* * *

نظر (أ) لساعته..

الحادية عشر ليلا..

ظل ينظر للسطح مشدوها..

هل تطل عليه مجددا؟.. أم ستذهب ولن تعود ثانية؟..

لا

لن يسمح لها بألا تعود ثانية..

شعر بطاقة لم يشعر بها منذ فترة طويلة.. شيء خارج المنطق جعله يذهب لباب شقته، وينزل راكضا على السلم.. رغم وجود المصعد، وآلامه الشديدة.. لكنه هبط على الدرجات في سرعة لا تدل إلا على ما في قلبه..

هناك شيء ما يحركه.. هو شخصيا لم يكن يعرف ماذا سيفعل.. هل يتوقع أن يجدها على سطح ذلك المبنى؟.. هل عندما يذهب لها في ذلك الوقت المتأخر ما الذي سيقوله؟.. ثم السؤال القاتل، الذي يجعله يتحرك بتلك السرعة..

هل هي موجودة أصلا؟..

فتح مدخل عمارته في سرعة، وبدأ في الركض في الطريق، وفي ركضه ظهرت لأول مرة عرجته الخفيفة، ذلك النقص الذي يعرف أنه موجود، ويجاهد كي لا يظهره.. لكنه لم يعبأ.. ظل يركض، حتى وصل لذلك المبنى الذي رآها على سطحه، وصعد سلمه أيضا..

كأنما، رغم كل لهفته، يتصارع داخله خوفه من ألا يلقاها..

فيأخذ الطريق الأطول..

كل ما مر به في حياته علمه أن ذلك «السحر» غير موجود..

ذلك الشيء الخارج عن كل حدود «المنطقي»، والذي إن كتب في رواية أو في فيلم، لن يتهموا صاحبه إلا بالخيال الجامح، وعلى لسانهم تلك الكلمة الميتة..

هذا لن يحدث في الحقيقة أبدا..

تعلموا الموت.. فحفظوه..

ويقنعوك به بمنتهى الفخر..

ما داخله من إحساس لحظي بالحماقة والاندفاع لا يسمى إلا بالسحر..

صعد للسطح، فوجد بابه مفتوحا، أمامه طوبة تمنع انغلاق مفاجئ، وذلك الهواء يضرب كل شيء حوله، في برودة لم يشعر بها طوال حياته إلا الآن..

دخل ببطء شديد، يتأمل السطح الواسع، الذي تلوثت تلقائيته بكل تلك الأطباق الواسعة، التي تستقبل من السماء ما تبثه للناس، ليتعلموا ذلك الموت اللذيذ..

مسحت عيناه السطح ببطء متلهف..

دقات قلبه تعلو رغما عنه..

ذلك الهدوء.. الليل الذي يعشقه.. البرودة التي تدغدغ كل شعرة في جسده..

لا يصح أن ينتهي كمال تلك اللحظة بعدم وجودها..

لابد أن تكون..

«كده جنانك بدأ يعجبني..»

التفت لها في ذلك الركن البعيد، الذي يطل على مبناه، ورآها..

وهي تنظر له..

مبتسمة!..

* * *

كالمعتاد ذهب (ب) للشرفة..

وكأنه اختيار حر لديه.. !

لا يدري لماذا.. لكنه كره انتظار خروج (سارة) من العملية.. كره رؤية ذلك الرعب في عين أمها.. تلك الساعات التي تمر دون أن تفعل شيئا إلا الانتظار..

أسوأ ما في المستشفى، أنك ترى مستقبلك في عيون كل من حولك.. كل هؤلاء المرضى.. ذلك الشعور الرتيب الذي يصاحب كل شيء.. نظرة أمك القلقة في عيون كل الأمهات، وهن في لحظات الانتظار لخروج ابنهن من العملية.. الممرضة تأتيك بتلك النظرة الروتينية القاتلة، تتألم أمامها فلا تبالي، حتى تشعر أنت بالخجل من ألمك.. لسان حالها يقول «لقد شاهدت من هم أسوأ منك حالا ولا يتألمون.. فلماذا تتألم أيها الطفل الرضيع؟»..

لا يوجد من هم أسخف ممن يستخفون بألمك..

نظر للنيل الذي صادقه الآن.. مرت عليه ثلاثة أسابيع، ينظر له ويتأمله كل يوم.. يعرف الآن قصة كل من يقف أمامه بعين الخيال.. هؤلاء العشاق، الذي يسرقون قبلة أو حضن دون أن يراهم أحد.. ذلك الرجل الكبير الذي ينظر للنيل بالساعات، منتظرا أن يعرف ذلك الشيء الذي سمعه في كل خطب الجمعة..

عمره فيها أفناه!..

أخرج تلك المفكرة الصغيرة من جيبه..

كان يعرف جيدا أنه، بعدما يجري تلك العملية، سيظل شهورا راقدا.. وعندما يتعافى تماما، سيظل يعيش بنصف حياة.. لن يكون هناك كرة قدم إلا على الكومبيوتر.. يعلم جيدا أنه لابد من أن يجد شيئا يحب أن يفعله، حتى لا يموت مللا في «حياة ما بعد الجراحة»، كما يحب أن يسميها..

في الأسابيع الماضية، حاول أن يجد أي شيء يفعله.. جرب الكتابة وفشل فيها فشلا ذريعا.. لا يكتب أكثر من جمل يحاول أن يبدو فيها عميقا ولا يعرف.. لذا، عندما أخرج المفكرة من يده، شعر بالملل من الكتابة.. فبدأ في رسم خطوط بلا معنى.. متذكرا معها ذكريات طفولة يحاول ألّا يتذكرها...

وقف جانبه رجل، مشعلا سيجارة وينفخها بقوة، فنظر له (ب) باشمئزاز قليلا، فنظر له الرجل ضاحكا وقال:

ـ مابتحبش السجاير؟

ابتسم (ب) وقال بهدوء:

ـ ماجربتهاش عشان مااحبهاش.. بس أنا بكرهها كره العمى.. عشان أنا مش هاسمح لنفسي أني أبقى عبد لأي حاجة غير دماغي!

ونظر للرجل قائلا بصراحة مطلقة:

ـ والصراحة بينزل من نظري أي حد بيشربها..

لا يدري لماذا يتكلم بتلك الوقاحة، لكن ذلك الشعور بالقلق على (سارة) جعله يتصرف بعصبية غير مفهومة، حتى بالنسبة له.. وهذا في حد ذاته جعله يشعر بعصبية أكثر!..

ضحك الرجل وقال ساخرا:

ـ حرام.. حتى انك تبقى عبد لدماغك حرام.. احنا مش عباد أي حاجة غير ربنا!

ثم تأمل السيجارة لحظات وقال:

ـ في حكمة بتقول لك «ماتقولش للمدخن بطل سجاير.. قول له: ايه الحاجة اللي واجعاك ونفسك تحكيها؟»

ابتسم (ب) ساخرا وقال:

ـ وايه بقى اللي واجعك ونفسك تحكيه؟

ضحك الرجل ثانية بمرح، شعر معه (ب) بالدهشة، والرجل يقول:

ـ لا أنا مافياش حاجة.. أنا باقول لك الحكمة بس..

وأخذ نفسا عميقا من السيجارة، وهو يلقيها بعيدا، ثم ينظر لـ(ب) نظرة طويلة، جعلت (ب) يشعر بالإحراج قليلا، ثم قال له الرجل فجأة:

ـ ماتحكمش على حد من حاجة بيعملها.. أقول لك على حاجة أنقح.. ولا حتى لما تعرف ليه بيعملها..

نظر له (ب) لحظات، ثم قال:

ـ أمال أحكم عليه امتى بقى؟

ابتسم الرجل، ونظر للنيل طويلا، ثم التفت لـ(ب) وقال بضحكة مستهزئة:

ـ ماتحكمش أصلا.. أنت مال أهلك؟!

قالها وهو يعطيه ظهره منصرفا، ورغم ما في الكلمة من إهانة إلا أن (ب) لم يرد عليه..

ونظر للنيل ثانية..

منتظرا خروج (سارة)..

*　*　*

كتبت (علا) بعد فترة صمت:

ـ تخليني أحبك؟.. انت أهبل يابني؟..

كتب:

ـ أهبل؟.. من الحصيلة اللغوية في الاهانة مالاقتيش غير أهبل؟.. :)

وبدأ ذلك السجال الإلكتروني، الذي لا تعلم حتى الآن كيف استمرت فيه..

ـ أنت عاوز مني ايه؟

ـ هو أنت عاوزة تسمعيها مني كتير ولا ايه؟:)

ـ مش فاهماك والمصحف.. انت مقتنع أنك هتسحرني بقى وأنا اقع من طولي من حنيتك؟

ـ أسحرك ممكن.. بس تقعي من طولك دي عمري ماارضاهالك..

ـ لِيَّ راجل يرد عليك..

ـ أختلف معاكِ في تعريف كلمة راجل.. بس قشطة..

ـ انت عارف أنا لو قلت لـ(أحمد) اللي أنت بتعمله ده هيعمل فيك أيه؟

ـ هييجي يضربني بعد مايخلص بولة الاستميشن..

صمتت متفاجئة، ثم كتبت بحذر:

ـ أنت قاعد معاه؟

ـ هههههههههههههه.. هو بيلعب دلوقتي؟؟؟.. هههههههههههه.. والله العظيم البشر دول متوقعين زيادة عن اللزوم.. لا يا ستي.. أنا قاعد في البيت..

شعرت أنها تريد أن تضرب الشاشة من عصبيتها، فكتبت:

ـ أنا غلطانة اني اتكلمت مع واحد زيك..

ـ طب سؤال هنا ماعتقدش انك سألتيه لنفسك..

ـ مالكش أنك تسألني أصلا..

ـ طيب.. :)

وصمت بعدها فعلا، فهمت أن تغلق الجهاز كله من عصبيتها، لكن شعرت بذلك الفضول القاتل، فكتبت وهي تعلم تماما أن ما تفعله خطأ:

ـ ايه السؤال اللي ماسألتهوش لنفسي؟

ـ مالكيش أنك تسأليني أصلا.. :)..

وأكمل كاتبا:

ـ وللأسف مافيش في العربي (ايموشن) بيطلع لسانه!!

أدهشتها تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها.. فمنعتها بقوة، ولم تكتب؛ لكنها لم تغلق أيضا، ليكتب هو بعد فترة صمت:

ـ هو احنا ليه بنخاف قوي من الحاجة الجديدة كده؟.. كل العصبية اللي

أنت فيها دي ليه؟.. ليه غلط قوي أني أقول لك اللي حسه؟

كتبت بتردد:

ـ عشان كل حاجة ليها قواعد.. كل حاجة ليها أصول.. لو كل الناس بتعمل زي ماانت بتعمل كان زماننا في غابة.. أي حد يحب مرات أي حد.. كل الناس تسرق الحاجة اللي مش من حقها.. مافيش أرض هنقف عليها تخلينا نعرف الصح فين والغلط فين!..

أخذ وقتا تلك المرة، ثم كتب:

ـ مافيش حاجة في دنيتنا أصلا (صح).. كلنا عمالين بنخبط فيها.. كلنا بنحاول نعيش على قد مانقدر.. ماحدش عارف ولا فاهم ولا متأكد من حاجة.. كلنا بلا استثناء غلط.. فلما الناس الغلط هي اللي تحدد الصح.. يبقى أصلا (الصح) ده.. غلط!

لا تعرف حتى الآن لماذا تحدثه.. لا تعرف كيف أمكنه أن يجعلها تسمع.. أن تستلم لما يريده هو في النهاية..

شعرت فجأة ما تشعر به ذبابة حائرة، لا تدري لماذا لا تحلق.. ثم تكتشف تلك الشباك الخفية لعنكبوت هي التي تمسك في اجنحتها..

كتب هو، كأنما شعر بما فيها:

ـ أنا هاقول لك على لعبة حلوة..

لم ترد، ولم ينتظرها هو..

ـ أنا هاقول لك كل حاجة فيكِ.. هاقول لك أنا شايفك ازاي.. ولو طلعت صح.. كل اللي طالبه أنك تسمعيني.. بس كده

كتبت في بطء..

ـ ولو طلعت غلط في اللي هتقوله؟

كتب:

ـ يبقى البلوك التهام.. ولا من شاف ولا من دري..

صمتت تفكر لحظات، لكنها وجدت تلك العلامة التي تقول إنه يكتب، كأنها يعتبر موافقتها شيئا مفروغا منه..

كالمعتاد..

يصدق ما تكره أن تعترف به لنفسها!..

* * *

قشعريرة مرت بجسد (أ)، جعلته يقف ولا يفعل شيئا سوى أن ينظر لها..

لم يرها من قبل في حياته.. هذا نفى داخله هاجس أنها من خيالاته..

جسدها الصغير.. شعرها المتراقص في عفوية، ويتطاير مع الهواء.. عيناها البنية الواسعة اللتان تحتلان كل من يجرؤ أن ينظر لها.. شفتيها رفيعتان مبتسمتان.. أنف مستقيم..

ثم الأروع..

تلك الموسيقى الحنونة، التي تصدر من هاتفها المتصل بسماعتين، يجعلان الصوت ساحرا..

هذا عالمها إذًا..

هذا السطح هو عالمها..

ظلت تنظر له مبتسمة، ثم أخرجت علبة السجائر من جيبها، وأخرجت

سيجارة وأشعلتها بقداحتها المعدنية الفضية اللون..

هل يكون من قمة السخافة أن يسأل نفسه كيف أشعلتها في هذا الهواء الشديد؟..

تلقت نظرته المتسائلة بنظرة مطمئنة، ثم ضحكت ضحكة صافية، وقالت:

ـ انت من النوع اللي بيفضل يبص كتير؟

طوال عمره سريع الرد حاضر الإجابة؛ لكنه فعلا لا يشعر الآن إلا أنه يريد أن ينظر فقط.. أن يتأمل تلك الحالة، التي ظهرت له فجأة من حيث لا يدري..

تتخلل الموسيقى الناعمة كل ما في حواسه..

صوت الكمان يرد عليه البيانو، في مزيج لا يذوب فيه إلا من عرف طعم الأمل.. والألم..

ومتى افترق طعمهما في تلك الحياة المريضة؟..

قال بصوت خافت، تمنى ألا تسمعه:

ـ هو أنت بجد؟

لتخيِّب هي آماله، وترد عليه باسمة، بعين تلمع في حنان مرير:

ـ وايه اللي يثبت لك؟

فكر في كل الأشياء المنطقية، ولم يجد.. إن جاء بأصدقائه كلهم، وجعلهم يقسمون أنها حقيقية، لن يصدق.. بل إن أقسمت عيناه شخصيا، لن يصدق.. ما الذي تفعله فيه تلك الفتاة؟.. ما كل هذا الذي تجبره أن يشعر به مرة واحدة؟.. قست الموسيقى على قلبه فجأة.. ذكرته بكل شيء جاهد

طوال حياته أن يهرب منه.. كل ما يدفنه من خوف وضعف ومواقف أثبتت له أنه أضعف من حشرة.. شعر بدمعة تملأ عينيه.. دمعة دائما ما تتوه في الطريق لعينيه، من قسوة هروبه..

نظر لها مجيبا عن سؤالها، وهو يستسلم تاركا الدمعة تهبط على خد واحد في سرعة، هاربة من ذلك الجحيم الذي يحتمل داخله:

ـ حضن..

نظرت للأرض لحظات، والتمعت عيناها بدموع غزيرة، مع ضحكة رائعة، تزين كل ركن في وجهها.. ضحكة حنونة مقدرة.. ضحكة تفهم كل شيء، كأم عاشقة..

رفعت إليه عينيها، وهي تترك دموعها أيضا، وتفتح ذراعيها على مصراعيه، في رسالة واضحة وصريحة بالايجاب...

لم يفكر، وهو يذهب نحوها بخطوات تريد أن تعرف طريقها.. تسارعت خطواته وهو يقترب منها، في لهفة ماتت داخله منذ زمن بعيد.. ورغم سرعته، ولا يدري لماذا، شعر أن كل شيء بالتصوير البطيء..

وعانقها..

وضع رأسه على كتفها، وأغمض عينيه، والتفت ذراعاه حول وسطها، واحتوت يداه ظهرها كله، في حين أحاطت يداها برقبته، كأنها تتشبث به من كل ما تخافه من الدنيا. ،

ذلك الدفء..

ذلك الـ.. كل شيء!..

شعر بروحه تغمره من جديد.. وكأنها فرغت بطارية مشاعره منذ أمد

بعيد، وأصبح جسد ميت.. وعاد من يشحنه من جديد..

ترك رأسه على كتفها، الذي لا يعرف كيف ارتاح من قبل على كتف قبله..

«الحضن» هو الشيء الوحيد الجسدي بين البشر، الذي يلمس روعة «الروح»..

أن تترك نفسك، وكل ما يؤلمك بين ذراعي من تعشق.. أن تترك نفسك وكل ما يؤلمك له!..

وتوقف الزمن كله للحظات..

ولو بسيطة..

مسحت بيدها على شعره بعد فترة، وقالت، تحاول أن تعيد بسمتها:

ـ طول عمري بحب اللي بيبصوا بس.. بيطلع منهم أحلى شغل..

ابتسم هو، وقد بدأ يفتح عينيه، ويعود شخصًا واحدًا ثانية، فقالت هي:

ـ صدقت؟

عاد له الكثير من نفسه، فنظر لها ماسحا تلك الدمعة الهاربة، وابتسم قائلا:

ـ بس ممكن أقتنع أكتر ببوسة..

ضحكت وهي تضربه في كتفه، وقالت ضاحكة:

ـ أيوة كده يا جدع.. هزر.. جتك القرف!

ضحك معها قليلا، ثم خطر بباله أغرب سؤال يأتيه الآن..

قال لها في حيرة:

ـ أنت مين؟

* * *

«ايه الهبل ده»؟

قالها أحد الطلاب في حدة، فالتفت له الجميع، حتى (أسامة) الذي صمت ولم يتكلم، فأكمل الطالب بحدة:

ـ ايه «الأفورة» دي؟.. أنا لما جيت هنا كنت جي عشان محاضرة بتتكلم عن سبع مراحل الحب.. الحب بتاعنا احنا.. بتاع الناس العادية.. حب (شيماء) بنت الجيران اللي بتضرب فول الصبح وتنزل الجامعة.. أو حتى يا عم حب صبي عجلاتي لواحدة عنده في الشارع.. عن التفاصيل الصغيرة اللي من مصر دي اللي تخليني أصدق..

ثم نظر لباقي الطلاب، وأكمل بحدة:

ـ لكن ايه يا عم واحد كان هينتحر لقى واحدة في السطح راح طلع حضنها وهي لا تعرفه ولا هو يعرفها؟.. والتاني العيان اللي حب واحدة لسة عارفها من خمس دقايق؟..، والتالت اللي رسم واحدة وهو مغمض عينيه وحبها قوي من أول قعدة؟.. دي مش ثقافتنا.. مش حياتنا.. أنا مش لاقي نفسي في ولا قصة من القصص.. مش عارف حتى استطعمها ولا اصدق انها بتحصل في الحقيقة.. فرقت ايه أنت عن أي فيلم أمريكاني رخيص بيخلي الرومانسية مجرد مشاعر «أوفر» قوي عمرها مابتحصل في الحقيقة؟!..

التفتت العيون كلها إلى (أسامة)، الذي نظر للطالب في صمت طال.. مع ذلك الهمس بين الطلاب، الذي لم يميز فيه إلا كلمة «الواد ده برنس» التي تتناقلها ألسنة الرجال بالذات..

ابتسم الطالب في سخرية وهو يقول:

ـ أنا ماشي..

قالها وهو ينهض فعلا، ونزل درجات السلم حاملا معطفًا جلديًا واتجه للباب، فقال (أسامة) بصرامة:

ـ استنى..

نظر له الطالب لحظات طويلة، وهو يقف أمامه.. في حين تعلقت كل العيون بـ(أسامة).. الذي عادت ابتسامته الواثقة على شفتيه، رغم أنها أول مرة يتعرض لهذا الموقف في محاضراته كلها..

قال للطالب:

ـ تعالى..

قال الطالب ساخرا:

ـ هو حتى هنا في تذنيب ولا ايه؟

ابتسم (أسامة) وقال بهدوء:

ـ اسمك ايه؟

رد الولد:

ـ (يحيي المهندس)..

تركه (أسامة) بهدوء، وهو يتجه لنفس المقعد الذي كان يجلس فيه (يحيي)، وجلس عليه.. ثم نظر لـ(يحيي)، الذي وقف أمام الطلاب في حيرة، فقال له (أسامة) بصوت عال:

ـ أنت ايه حالتك العاطفية؟

ارتبك (يحيي) قليلا، ثم تمالك نفسه وقال مستعيدا هدوئه:

ـ خاطب

ليسأل (أسامة):

ـ بتحبها؟..

ابتسم (يحيي) وقال:

ـ طبعا..

ليسأل (أسامة):

ـ يعني أيه؟..

ساد صمت طويل تلك المرة، ثم هز (يحيي) كتفيه وقال:

ـ يعني بحبها.. بحس معاها بحاجات حلوة.. بلاقي نفسي معاها وبنسى الوقت.. وحاسس أني ممكن أهد الدنيا عشانها..

ليسأل (أسامة):

ـ أول مرة تحس بيها كانت أمتى؟

بدأ (يحيي) في ابتسامة حانية وهو يقول:

ـ أول مرة شوفتها فيها في الجامعة.. كانت ماشية في وسط اصحابها وحسيت بحاجة غريبة.. أني أعرفها من زمان.. حسيت أني عاوز.. أني عاوزها تبقى مراتي وأم عيالي.. حسيت أنها خدتني من حاجات كتير قوي..

ليسأل (أسامة):

ـ عملت ايه عشان توصل لها؟

ضحك (يحيي) وهو ينظر لكل من في القاعة:

ـ فضلت راشق وراها ولازقلها لحد ماعرفت أوصل لها.. اتشلقبت لها قرد..

ضحك الطلاب معه، ليسأل (أسامة):

ـ فرقت ايه وانت بتحكي عن (أ) و(ج)؟..

صمت الجميع لحظات، في حين استعاد (يحيي) سخريته وهو يقول:

ـ أنا ما رحتش حضنتها في أول مرة شوفتها فيها.. ولا كانت هي مرتبطة ورحت أعلقها..

ليسأل (أسامة):

ـ ساعة ما حسيت بيها أول مرة.. كنت تعرف أي حاجة عنها؟.. إذا كانت مرتبطة ولا لأ؟..

نظر له (يحيي) صامتا، ليكمل (أسامة):

ـ انت حسيت وخلاص.. والكلام اللي أنت قلته عن أنها تبقى مراتك وإحساسك الغريب.. هو ده تفسير عقلنا لإحساس بسيط قوي احنا بنرفض نصدقه أو بنمنطقه، على حسب الطبيعة اللي نشأنا فيها.. اللي هي «مصر» اللي بتقول عليها.. الإحساس ده مالوش غير ترجمة واحدة.. انك عاوز حد يحتويك.. الاحتواء ده بيكون شامل كل حاجة... مشاكلك وهمومك وفرحك وظروفك.. ويخليك تقرر تشارك حد وتقاسمه بقية عمرك..

ونهض من كرسيه، وهو يعود أمام الطلاب ثانية، أمام نظرة (يحيي) المستنكرة، وأكمل بحماس:

ـ معاكم أن القصص اللي هنا ممكن ماتتصدقش شوية.. بس ايه المانع أننا نصدق شوية «خيال»؟.. هنموت لو صدقناه؟.. وايه المشكلة في شوية «خيال»، مادام فيه كل اللي احنا بنحسه وبنخاف نقوله حتى بيننا وبين نفسنا؟..

وأكمل مشيرا لـ(يحيي) أن يعود لمكانه:

أنا مش هاقرالكم في المحاضرة دي قصص جاية من واقع صفحة الوفيات.. فلان حب اتجوز خلف مات!.. والعزاء لكل اللي مافهمش عملها ازاي.. أنا هنا عشان أقول لكم ازاي الواحد مننا بيقع في نفس الفخ اللي بيجي منه كل الوجع والحزن والألم.. وعشان تفهموا، لازم تحسوا.. وعشان تحسوا، لازم تغمضوا عنيكم عن كل القرف اللي حواليكم.. تغمضوا عنيكم وتسرحوا شوية في دنيا الخيال.. وتسألوا نفسكم سؤال واحد.. ممكن يغيَّر حياتكم كلها، لو فعلا اقتنعتم بيه..

وصمت لحظة، ليعطي كلمته التأثير المطلوب:

ـ ليه.. لأ؟!

صمتوا جميعا ناظرين له.. يعلم جيدا أن نصفهم لم يقتنع، ونصف آخر لا يتكلم، كي يعرف إذا كانت النقود التي دفعوها تستحق أن يسمعوا لذلك المعتوه، الذي يتكلم عن الحب كأنه الحياة كلها..

ليتهم يعلمون..

أنهم لم يخلقوا من الأصل إلا كي يحبوا..

عبادتهم حب.. إيمانهم حب.. تحمُّلهم لكل ما في الدنيا من تخبط عشوائي حب..

طرد أفكاره من ذهنه، وهو يكمل باسما مغيِّرا للموضوع:

ـ بذمتكم ماوحشكوش (د)؟

* * *

قالت له أمه، وهي تدخل الغرفة عليه:

ـ (مروة) عاوزاك..

عقد ذراعيه أمام صدره، وهو يعطي ظهره لأمه، وقال بغضب:

ـ أنا مخاصمها..

ليجاوبه صوت (مروة) قائلا بانزعاج:

ـ ليه بس؟

التفت لها بفرحة، ثم أدرك أنه غاضب، فعقد حاجبيه وهو يرفع إصبعه الصغير في وجهها ـ علامة الخصام الأبدي ـ ويقول:

ـ أنا مخاصمك

ارتفع حاجبا (مروة) في ضيق حقيقي، وقلبت شفتها السفلية في تلقائية، وهي تقول وهي تكاد تبكي:

ـ أنا عملت ايه؟..

قال وهو يقلب شفته السفلى أيضا:

ـ انتِ بتلعبي مع ناس تانية..

اقتربت منه، وقالت بادئة في البكاء فعلا:

ـ والله هم جم لوحدهم.. وكمان ماما بتاعتهم قالت لي ألعب معاهم.. وانا لو ماسمعتش كلام الكبار هاروح النار..

لم يرد عليها، رغم اقتناعه التام بكلامها، وهو لا يرضى أبدا أن تدخل النار بسببه، لكنه ظل عاقدا حاجبيه في غضب عنيد، حتى سمع صوت نهنهتها، فالتفت إليها ونظر لها لحظات.. ثم اتجه لدرج مكتبه الصغير، وأخرج منه تلك الورقة المقطوعة من كراس الرسم.. وقال باسما:

ـ أنا كنت جيت عشان اديكي دي..

مسحت دمعتها وهي تبتسم، ومدت يدها تلتقط الورقة، و(د) يكمل:

ـ ده الهوم ورك بتاع ميس (نجوى).. قالت لينا ارسموا حاجة بتحبوها..

نظرت للرسم، ثم اتسعت ابتسامتها، في أنقى تعبير عن الفرحة..

كانت الرسمة كلها عبارة عن طفلين، ممسكين بِدَّي بعضهما، مع شمس تخرج منها خطوط طفولية، وبعض السحب وطيور.. ولمزيد من الإيضاح، وضع سهما على الطفلة، مكتوبًا عليه بخط متعرج (مروة)، وعلى الطفل الآخر سهمًا مكتوبًا عليه (أنا)..

شعرت (مروة) بفرح شديد، فنظرت لـ(د)، الذي يقف أمامها بوجه خجول، ثم اتجهت ناحيته ومالت عليه لتقبله في خده، وهي تقول:

ـ أنا بحبك قوي.. ثانك يو..

وركضت مسرعة خارج الغرفة..

خلفها (د) يتحسس خده في استغراب..

مبتسما في بلاهة طفل، عمره ٧ سنوات..

* * *

قال (أسامة) ببسمة:

ـ قبل ما حد فيكم يعملها.. يا خلاااااااااازيييييييي..

ضحك الجميع، ليقول (أسامة)، وهو يحاول أن يستعيد ذلك الجزء من الثقة، الذي فقده منذ قليل:

ـ المحاولة ليها أشكال وأنواع أكتر مما تتخيلوا.. في قصص حب كانت ممكن تبقى عظيمة جدا، لو ما انتهتش عند المحاولة.. بس لو فكرنا شوية..

وصمت لحظات ليقول:

ـ هي أصلا مابتبقاش محاولة.. هي بتبقى سعي لحاجة لازم هتحصل.. أنت خلاص خنت نفسك لما اتوجعت قبل كده.. خلاص مستعد تاخد نفسك وتقول «أنا بحب».. والواحد لما يحس بكده فعلا.. مافيش حاجة بتمنعه لحد ما يوصل.. هتقولوا لي لازم الطرف التاني يدي فرصة.. يدي مساحة.. هاقول لكم لأ.. ده اللي بيفرق اللي بيحب عن المعجب.. عن اللي عاوز يمتلك وخلاص.. عن اللي بيلعب، وكل ما اللعبة تصعب يحاول أكتر..

ثم نظر لهم وهو يتحرك كعادته:

ـ فاكرين لما قلت لكم «بتحس أنك ناقص حتة»؟..

نظروا له في بلاهة، فأكمل:

مش مشكلة.. الإحساس بتاع ناقص حتة ده.. مش بتلاقيه غير مع اللي شدك قوي كده.. وحبيته قوي كده.. بتحس أنك عمال تتسحب ومش عارف ليه.. فعشان كده مش بتحاول معاه إلا بالطريقة اللي هيفهمها حبيبك ويعرف يستوعبها.. م الآخر كده.. بتحاول معاه بالطريقة اللي مش هيفهمها غيره.. لأنك منه.. وهو منك..

وأكمل بحماس:

ـ مثلا.. (ج) عمره ماكان هيعمل اللي عمله الا لما لقى ان (علا) فيها الحتة الناقصة اللي فيه.. اللي هتعرف تفهم كل ده.. (أ) ماكانش هيجرؤ أنه يقول (حضن) غير لما عرف أنها هتفهم.. لأنها لازم تفهم..

ثم أخذ نفسا عميقا وهو يقول:

ـ عشان كده بيبان قوي.. الفرق بين اللي حب بجد.. واللي حب الاهتمام بس.. تلات أرباع الجوازات بيبقى عشان بيحبوا الاهتمام.. بيعوض نقص جواهم أو بيخليهم يعيشوا في (موود) الحب.. بس اللي هما مش عارفينه.. ان الحب مش تعويض نقص.. الحب اكتمال روح..

رفعت أحد الطالبات يدها، وقالت دون حتى أن يأذن لها:

ـ بس (ب) ماحاولش.. كل اللي عمله أنه استناها..

ليبتسم (أسامة) أبتسامة خبيثة قليلا وقال:

ـ أمال تفتكري ليه مسك المفكرة.. وبدأ يرسم؟..

نظرت له في حيرة، ليقول هو مسرعا:

ـ الجزء التالت من المرحلة التانية.. وأسعدها.. (الموافقة)..

* * *

ما زالت الموسيقى تنساب بنعومة، مخترقة كل ذرة فيها تريد أن تشعر..

عندما سألها (أ)، نظرت له ولم تجب، فقط قالت ببسمتها الغريبة، التي تجمع كل التناقضات:

ـ ترقص؟

نظر حوله، مستعيدا إحساسه بالواقع.. هل تصادف أنها فعلا قابلته في ذلك السطح؟.. أم أنها تريد أن تجعله يدرك كيف يبدو كل شيء من ذلك الارتفاع الشاهق.. صغير..

كل الآلام والمآسي التي مر بها تبدو..

صغيرة.. !

ذهب معها كالمسحور، وهي تمسكه من يده، ذاهبين لمنتصف السطح.. وأحاطت رقبته في هدوء شديد، وبدأت تتمايل معه على نغمات الموسيقى، التي تجعله ينسى من أين أتى وأين سيذهب.. ومن يكون..

ألهذا يحرّمون الموسيقى؟..

لأنها تعطيك رائحة من ضياء الجنة؟..

ظل يحدق في عينيها الواسعتين اللتين تتأملانه بنظرة غريبة..

نظرة استغاثة.. جنون.. حنان.. وقسوة..

نظرة لم ير مثلها إلا في..

مرآته..

قال بصوت متهدج:

ـ أنت ازاي برة الدنيا كده؟

قالت، بعد ضحكة خافتة وبعض من تمايلهما معا:

ـ الدنيا هي اللي برّايا..

أمسك يدها، ورفعها لأعلى، لتضحك هي وتدور حول نفسها، فيتطاير

شعرها معها، مثيرا أكبر قدر من المشاعر في قلبه، الذي نسي معنى كلمة هدوء منذ رآها..

ظلت تدور حول نفسها مبتعدة عنه، فذهب وراءها، حتى اقتربت من السور، ونظرت له بتحدٍ قليلا.. ثم اعتلته في هدوء شديد، ووقفت عليه على أطراف أصابعها، بثبات عجيب!.. صاح فيها بخوف حقيقي:

- انزلي..

نظرت له بنظرة عابثة، ثم قالت:

- لو وقفت على السور ده زيي.. هاقول لك اللي أنت عاوزه..

قال، وهو لا يستطيع أن يداري ذلك القلق الذي يملأ كيانه:

- يا ستي عنك ما قُلتِ أي حاجة.. انزلي بس..

لم ترد عليه، فنظر لكل شيء حوله لحظات، ثم ذهب بحماس للسور، واعتلاه، وحاول أن يقف مستقيما، لكن جسده أخذ يترنح، في محاولة مستميتة لإيجاد مركز اتزان.. الهواء يضرب فيه بشدة، فانحنى ثانية، ليمسك بالسور بيديه في خوف، تعجب هو منه بشدة.. ورفع عينيه إليها، ليجدها تنظر إليه ساخرة وتقول:

- أمال كنت واقف على سور بلكونتك ومش خايف ازاي؟

أمسك في السور أكثر، وقال بصوت مهتز:

- ماكنتش لاقيتك..

قالها دون أن يفكر، فاتسعت عيناها في دهشة لحظات، ثم نظرت لنفسها، بذلك الثبات الذي تقف به، وقالت ساخرة:

- يبقى أنا لسة مالاقيتكش..

فهم قصدها، فقال لها برجاء:

ـ ممكن تنزلي..

ثم بثقة ملأته فجأة أكمل:

ـ وهتلاقيني..

لتنظر له هي لحظات طويلة، تخترقه بعينيها.. ثم قالت بهدوء:

ـ ماشي يا عم..

وضحكت قائلة، وهي تنزل من على السور ويتبعها هو:

- challenge.. accepted

* * *

ـ انتِ ازاي تقلقينا عليكِ كده؟

قالها (ب) في ابتسامة لـ(سارة)، التي كانت راقدة على فراشها، وهناك شاش كبير يلتهم من رأسها جزءً كبيرًا.. فضحكت هي ضحكة خافتة، وقالت:

ـ ربنا يخليك.. انت عامل ايه؟

كانت قد خرجت من عمليتها منذ يومين، لكن لم يسمح لأحد بالزيارة إلا الآن، فقالت له أمها، التي أشعرته أنها أمه في الأيام الماضية، أن يذهب ويزور (سارة) قليلا، لأنها مكتئبة.. فذهب..

قال لها مبتسما:

ـ المعتاد.. ملل شوية.. بقالي هنا فترة العملية بتتأجل.. وحقن شرجية.. بس كده..

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم ساد بينهما ذلك الصمت الغريب.. هو لا يعرفها، وهي لا تعرفه، وهو يحفظ ذلك الكلام المعتاد لتهنئة كل من خرج من عملية.. ثم أن آلامه في ذلك اليوم بالذات لا تطاق. قطعت هي الصمت بسؤالها:

ـ هو أنت عندك ايه؟

قال بابتسامة:

ـ عندي بلاي ستاشن عاوز أبيعه..

لم تضحك، فشعر هو بسخافته، لكنها قالت بجدية:

ـ لأ قصدي مريض بايه؟

ذلك السؤال الذي يعتصر فيه ألمًا لا يدرك معناه.. ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

ـ سيبك مني أنا وقولي لي.. الوجع عامل ايه؟

نظرت له لحظات.. السؤال يبدو بريئا من الخارج، لكن ذلك العمق الذي نطقه به، جعلها تنظر لعينيه فتتأكد من قصده، من تلك النظرة الهادئة المتأملة..

قالت مبتسمة في هدوء:

ـ الوجع بياخد منك كتير قوي..

أومأ برأسه إيجابا، فنظرت للأرض وقالت مبتسمة:

ـ نصيحتي ليك.. الحق نفسك قبل ما الوجع يغيَّرك.. لأنك عمرك ما هتعرف ترجع تاني..

لمس كلامها داخله وترًا، جعله يعتدل في جلسته، لتكمل هي بدمعة تترقرق في عينيها:

ـ اعمل كل اللي نفسك فيه.. احتفظ بكل حاجة دلوقتي ممكن تفكرك بيك.. الحق اللي فاضل من روحك..

شعر أنه جعلها تكتئب أكثر، فابتسم قائلا:

ـ هو أنا هاموت ولا ايه؟

لم تضحك، لكنها نظرت له في هدوء، وهي تمسح دمعتها وقالت:

ـ أسوأ..

لم يرد عليها، وهو ينظر لها.. لا يتذكر ماذا قال لها، ليعتذر.. وينصرف.

كل ما يتذكره هو أنه خرج من غرفتها مسرعا في مشيه.. وأمسك هاتفه المحمول، وهو يخرج للشرفة المطلة على النيل، الذي تتهايل شمس الغروب حوله في رقة، وهو يطلب رقما يحفظه عن ظهر قلب..

لا يتذكر إلا عندما سمع صوتها على الهاتف تقول في مرح:

ـ باشا..

ليقول هو بسرعة، كأنها يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ (دنيا)..

وأخذ نفسًا قصيرًا وهو يقول:

ـ أنا بحبك..

* * *

كتب (ح) بسرعة:

ـ أنتِ شخصية طيبة جدا.. دمك خفيف.. ليكي وجود ملحوظ في كل مكان بتروحيه.. بتحبي تشدي عين الناس ليكي.. بتحبي تبقى مركز اهتمام.. حساسة جدا.. رومانسية جدا.. بس مابتحبيش تبيِّني ده قوي.. نفسك تتحرري من قيود كتير.. نفسك تلاقي نفسك صح..

ثم صمت قليلا وكتب:

ـ بس موجوعة قوي..

ابتسمت ساخرة وكتبت:

ـ وهي دي دخلتك اللي بتخلي البنت تدمع وتقول «واو.. ده فاهمني قوي».. ما كلنا موجوعين.. ايه الجديد؟..

كتب كأنه لم يقرأ شيئا:

ـ مسكتك لإيد (أحمد) مسكة مش حلوة.. مسكة بتحاولي تبيني فيها أنك بتحبيه.. بس مش مسكة ايد واحدة بتحب.. فغالبا (أحمد) شخصية نمطية قوي.. حد «أمان» زي مابيقولوا.. كل حاجة معاه متوقعة.. كل حاجة معاه ثابتة لمدة عشر سنين قدام..

همت أن تكتب «مااسمحلكش».. لكنها تراجعت ومسحتها، ليكمل هو:

ـ متدلعة شوية.. يعني تقريبا أنت بنت وحيدة في عيلتك.. أو ليكي أخوات بس مش بنات.. إحساس التميز اللي في عينك ده غالبا بيبقى من كده.. اهتمامك بلبسك وطريقة حجابك.. وآه..

وأكمل:

ـ وبتدخني بس ماقولتيش لحد.. سجاير «مور» الرفيعة الطويلة دي.. وغالبا بالنعناع..

اتسعت عيناها في دهشة حقيقية تلك المرة.. ليكمل هو:

ـ وجعك أعمق من أي حد.. أنا مش عارف اذا كان باباكِ عايش ولا متوفي.. بس عينك وطريقة كلامك بتقول إنه لسة عايش.. لسة موجود لمحة منه فيكِ.. بس مش موجود كأي أب.. عشان كده هاقدر أقول لك إن والدك ووالدتك مطلقين بس طلاق محترم..

سقط فوها منها في ذهول، في حين أكمل هو:

ـ انت شُفتِ مامتك وهي بتتضرب أو بيحصل فيها حاجة مش كويسة.. مسكتك لسلسلتك كل شوية وانت بتتكلمي مش بتقول غير أنك بتفكري نفسك بالوجع ده.. مافيش مرة مسكتيها إلا وكنت سرحانة.. جواكِ طفلة بتطلع في الكلام كأسلوب هزار، بس أنا مش باخد الحاجات دي بهزار.. انت مفتقدة براءة فيكِ مش عارفة تلاقيها.. عشان كده مش هاستبعد أنك مسمية كل حاجة عندك.. وأكيد في دبدوب كبير شوية.. وغالبا بتنامي وأنت حضناه لحد دلوقتي..

نظرت لـ «دبدوبها» في خوف، في حين صمت هو طويلا، ثم كتب:

ـ وأنا كنت خايف أقول لك حاجة زي كده..

انقبض قلبها في خوف، متوقعة ما سيقوله، في حين كتب هو:

ـ بس أنت حاولتِ تنتحري قبل كده..

نهضت من كرسيها مفزوعة وهي تنظر للشاشة، ونظرت حولها في غرفتها، متوقعة أن تجد كاميرا ما في الغرفة..

كل ما قاله صحيح مائة في المائة..

كتب هو مكملا:

ـ ومرعوبة مني دلوقتي عشان أنت عمرك مافلتِ الحاجات دي لحد قبل كده.. وبتكرهي أي حد يعرف يخش جواكِ من غير ما تسمحي له..

كتبت وهي تكاد أن تحطم «الكيبورد»:

ـ أنت عرفت ازاي؟.. أنت ليه عاوز تجنني؟

كتب هو آخر ما توقعته:

ـ يبقى أنا كسبت في اللعبة..

وصمت لحظات، ليكتب بهدوء:

ـ وليَّ عندك جايزة..

* * *

في عيد ميلاده الثامن، وبعد أن أطفأوا الشموع، وأخذوا في فتح الهدايا الكثيرة، وسط ضحكات الأهل الطيبة، وحقد جميع الأطفال بكم الهدايا الذي يفتحه (د)..

ذهب (د) لـ(مروة) وقال لها مرتبكا:

ـ (مروة) أنا بحبك وعاوز أتجوزك

نظرت له (مروة) وقالت بفرحة:

ـ وأنا كمان بحبك وعاوز اتجوزك..

ضحك (د)، ثم تركها وذهب ركضا، ليكمل لعبه مع بقية أصدقائه..

* * *

ويقول (أسامة) باسما:

ـ قربنا..

* * *

قالت له وهي تستند على السور:

ـ ارغي..

نظر لها (أ) لحظات.. بدأت الثقة تغزوه قليلا.. استرجع ذكريات ألقاها بعيدا منذ أمد، كي يعود ذلك الشخص الذي كان يجد في يوم قيمةً ما في الحياة.. عندما كان هناك مذاق لكل شيء..

عندما كان هناك غد!..

أخرج علبة سجائرة ببطء، وأخرج منها سيجارة ليشعلها بهدوء، متعمدا أن يجعلها تنتظر قليلا.. ثم أخذ نفسًا عميقًا، يهدئ به كل ما يعتمل في قلبه من خفقات..

استند على السور جانبها، وجلس عليه، وقال بابتسامة وهو ينظر أمامه، وليس لها:

ـ أنتِ قدامك حل من الاتنين..

ورفع إصبعًا وهو يقول:

ـ يا إما تحكي ايه الجو والحالة العجيبة دي..

نظرت له بتحدٍ مبتسمة وقالت:

ـ يا إما..؟

رفع حاجبه في ثقة وقال:

ـ يا إما مش هاحضنك تاني..

ضحكت من قلبها وهي تنظر للسماء، ثم نظرت له قائلة بسخرية:

ـ طب هددني بحاجة عليها القيمة طيب!..

هز كتفه بهدوء، وقال ناظرا لعينيها مباشرة:

ـ ده اللي عندي..

نظرت له نظرة طويلة، تتجول فيها جميع المعاني بحرية تامة.. تلك فتاة عيناها تفضح كل شيء فيها، وهذا ما يزيد غموضها.. أنها تفعل دائما عكس ما تقوله عيناها!..

أشارت لباب السطح، وقالت في إشارة ضمنية أنها راق لها التحدي:

ـ أنا عايشة في الشقة اللي قدام السطح دي.. باظبط البواب عشان يخلي مفتاحه معايا.. الشقة ضيقة جدا.. بتخنق فيها، فبطلع هنا.. وأعيش براحتي بـ «مودي» ومزيكتي..

ثم قالت بسرعة:

ـ أنا زهقت.. تعالى نعمل حاجة تانية..

توقع هروبها السريع هذا، فابتسم قائلا:

ـ ماشي.. تعالي نعمل حاجة تانية..

نظرت له في حماس، فنظر لها نظرة طويلة..

هناك أشياء في الحياة، مهما طال عمرها، قصيرة..

وهناك أشياء، مهما قصر عمرها.. مؤبدة..

وتلك فتاة، مهما طال عمره معها، من عشقه لها، سيشعر أن الحياة

قصيرة.. وسيموت سريعا!..

قال باسما، وعيناه تنظر لها بعشق:

ـ تعالي نتجوز..

اتسعت عيناها في ذهول حقيقي، لتلك الجدية التي نطق بها كلمته.. ثم ضحكت وقالت، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها:

ـ يابن المجنونة..

لم يضحك، فظلت تنظر له، متوقعة منه أن يتراجع أو أن يقول إنه كان يمزح، لكنه قال بصوته العميق:

ـ ليه لأ؟

نظرت له لحظات، ليرد القدر عليه فجأة..

ضرب جرس هاتفه المحمول، فانتفض ونظر للهاتف، ليجد ذلك الاسم السخيف، الذي طالما طلبت منه أن يغيِّره، ودارت بسببه مشاكل كثيرة، لأنه ليس رومانسيا..

«سلمى فودافون».

* * *

«أنت واخد بنج.. صح؟»

قالتها (دنيا) متعجبة، ليقول (ب)، كأنما يريد أن يرتاح من ذلك الثقل الذي على قلبه:

ـ احنا اصحاب بقالنا ٣ سنين.. يعني من ٣ اعدادي!.. انت طول عمرك شايفاني صاحب جدع وواد راجل زي مابتقولي.. وانا والله فعلا

كنت صديق ونيتي صداقة.. بس من سنة واحدة فجأة بقيتِ كل حاجة.. مابقتش عارف أفكر غير فيكِ.. أنا فضلت ساكت كل ده عشان م الآخر انا حتة عيلماينفعش أحب.. بس..

وأخذ نفسا عميقا وهو يقول:

ـ أنا بحبك.. بحبك قوي كمان.. بحب ضحكتك لما بتكرمشي مناخيرك كده.. بحب لما بترتبكي شوية فتمسكي خصلة معينة من شعرك وتلفيها حوالين صباعك.. بحب هزارك معايا اللي مش بتهزريه لأي حد.. بحب جدعنتك ووقفتك معايا في كل زعلة.. بحب أنك مابتروحيش لأي حد في الدنيا غيري لما بتكوني متضايقة.. بحب فيكِ.. كل حاجة.. أنا ماتعلمتش أصلا يعني ايه أحب غير على اديكِ..

وصمت لحظات، ليسمع صوت نفسها، ويتأكد من أنها مازالت حية وأكمل:

ـ ومافيش ضغط عليكِ.. مش عشان أنا عيان يعني تقولي آه.. أنا باقول لك بس عشان كان لازم أقول لك.. لأني مش عارف.. مش عارف أنا هاطلع من المستشفى حاسس بايه.. بس كل اللي أعرفه.. أني مش عاوز أعيش غير عشان أشوف وشك تاني..

صمت فترة.. وعندما لم يجد إلا صوت نفسها قال:

ـ ايه رأيك؟..

كل ثانية من صمتها شعر أنها عمر كامل.. تصببت يداه عرقا على هاتفه، لكنه لم يبالِ.. لماذا البوح بالمشاعر شيء بهذا الصعوبة.. لماذا؟..

تنحنحت هي، فانتعش قلبه، وقالت بصوت خفيض:

ـ أنا..

«عفوا.. لقد نفذ رصيدكم»..

قاطعه ذلك الصوت، فانتفض جسده ونظر للهاتف بغيظ شديد.. وهم بأن يلقيه من الشرفة، لكن تذكر أنها قد تكلمه ثانية.. لكن ماذا لو لم تتكلم؟!.. منذ أن دخل تلك المستشفى وهو يتأقلم على ذلك الهدوء والتأمل في كل شيء، حتى يستعد لكل شيء سيحدث له.. كيف أعادته هي في ثانية واحدة لذلك المراهق، الذي يشعر أن حياته كلها تعتمد على ردها؟.. ثم ذلك الهاتف اللعين.. لماذا لم تتصل؟..

«خد يابني»

قالها الصوت من خلفه، لينظر بسرعة، فيجد ذلك الرجل «المدخن» يمد يده له بمحموله، ويبتسم قائلا:

ـ كلمها يابني.. دا انت من كتر ماصوتك عالي خليت الدور كله مستني ردها!..

كاد أن يسأله «تفتكر هتوافق»، ثم استعاد عقله لحظات، وهو يأخذ الهاتف مغمغما بكلمات شكر مبهمة، وطلب رقمها بسرعة شديدة.. ليدوي ذلك الجرس الثابت الممل.. حتى سمع صوتها الحنون يقول بتساؤل:

ـ آلو؟..

قال بسرعة:

ـ أيوة يا (دنيا).. أنا باكلمك من رقم راجل معايا في المستشفى بيطلع لي في أوقات غريبة كده..

تذكر أن الرجل ما زال واقفا خلفه، فالتفت له معتذرا، ليجده أشعل سيجارة وابتسم، مشيرا له أنه لا شيء.. قالت وقد هدأ صوتها قليلا:

ـ طيب..

صمتت، فلم يجد بدا إلا أن يصمت هو أيضا فترة طالت، حتى تنحنح الرجل خلفهما، في علامة أنه أيضا لديه رصيد وسينفد بالتأكيد.. فقال (ب) وقد بدأ اليأس يغزوه:

ـ أنا حمار صح؟.. ماكنش ينفع أقول.. انا كده بوظت كل حا..

ـ أنا بحبك..

قاطعته هي، ليصمت هو تماما غير مصدق، فأكملت هي:

ـ أنا بحبك من تالتة اعدادي.. يا حمار..

قال هو بابتسامة، كادت أن تلامس أذنه:

ـ طب ماتقوليش حمار لراجلك طيب.. عيب..

ضحكت، فضحك هو معها..

ونسي للحظات كل شيء عن ألمه..

بل نسي كل شيء عن دنياه..

* * *

كانت مازالت مرتبكة، فظلت صامته تقرأ آخر شيء كتبه..

«ـ وليّ عندك جايزة..»

ظل هو منتظرًا بهدوء شديد يستفزها، كأنها يعلم أنها لن تغلق.. يقول الشيء وينتظر رده.. يخبرها بأسلوب خبيث أنها يجب أن ترد، حتى لا تجرؤ حتى أن تتهمه بأنه السبب.. كالشيطان بالضبط.. يغريك بالشيء، لكن لابد أن تفعله بنفسك.. لابد أن تذهب بتلك القدم المسحورة إلى الخطيئة..

الإرادة الحرة.. لعنة كل الخطايا!..

كتبت، وهي تعلم أنها استسلمت تماما لقواعده، وأصبح هو، بأرقى أسلوب في الدنيا، سيدها..

إن طلب أي شيء في الدنيا ستفعله، حتى لو كان ضد كل مبدأ تعلمته في الحياة..

إن من عرف كل ذلك عنها من مجرد ساعتين، لم يحدثها فيهما إلا قليلا، فهو يستحق تاجها..

« ـ ايه الجايزة اللي أنت عايزها؟..»

كتب بعد فترة صمت:

ـ أنك تحاولي تنبسطي من قلبك.. تبطلي التمثيلية اللي انتِ عايشاها دي وتعرفي نفسك بجد..

نظرت للكلام بدهشة، ثم ارتفع حاجباها في استنكار، عندما قرأت ما كتبه بعدها..

ـ وتعملي لي ديليت وبلوك.. عشان أنت عمرك ما هتبقى خاينة.. ومش انا اللي هيزود الوجع ده عليكِ بقية عمرك..

وليكمل بهدوء الدنيا..

ـ سلام.. :)

كتبت بسرعة، قبل أن ينصرف:

ـ انت مجنون؟.. أنت بتعمل فيّ كده ليه؟.. دا انا كنت هاوافق على أي حاجة هتطلبها!..

صريحة قليلا؟.. قالتها لنفسها، لكنها لم تلبث أن قالت: وهو ينفع معاه كدب؟!..

كتبت بسرعة:

ـ أنت فين؟

كتب بعد فترة صمت، كادت أن تحطم الشاشة فيها:

ـ متأكدة؟.. مش هتندمي؟

بالضبط..

كالشيطان..

كتبت بهدوء وثقة تلك المرة:

ـ مش هاندم..

ليكتب هو:

ـ مش قلت لك «هاخليكي تحبيني؟»..

ولم تستطع هي أن تبتسم.. وقد بدأت في الندم بالفعل..

* * *

رد على الهاتف بضيق:

ـ أيوة يا (سلمى)؟

قالت (سلمى) بقلق:

ـ أنت فين كل ده؟.. أنت قلت لي إنك داخل الحمام وراجع!..

عاد واقعه إليه، بملله وسخافته ورتابته وموته، في ثوانٍ..

قال بصوت ملول:

ـ معلش.. أصلي اتخنقت فنزلت أجيب سجاير..

ارتفع حاجبا فتاة السطح في سخرية، ونظرت للأرض وهي تهز رأسها ضاحكة، فنظر لها (أ) بضيق و(سلمى) تقول:

ـ مخنوق من ايه يا حبيبي؟..

قال بضيق صدره معها.. بل بضيق صدره مع كل ماذكّره صوتها به:

ـ هو أنا يعني عمري قلت لك أنا مخنوق من ايه؟.. مش بتزهقي من السؤال ده؟..

ضحكت هي في براءة، وقالت:

ـ هو أنت مش بتحبني أصلا عشان مابزهقش؟.. عمري ما هازهق م السؤال.. ولا هازهق من ردك..

قال محاولا أن يبدو هادئا:

ـ ممكن بس تسيبيني شوية لوحدي.. أنا لما أهدا هاكلمك..

صمتت لحظات، ثم قالت بخفوت:

ـ طبماينفعش تحاول تبقى معايا شوية.. يمكن أريحك..

لم يرد، وهو ينظر للسماء.. فقالت هي بحنان:

ـ أصل أنت وحشتني قوي..

شعر بخنجر كسول، يذبح في قلبه بسخافة غير طبيعية.. ذلك الألم المصاحب دائما لحبها غير المشروط.. قال بصوت بارد:

ـ أنا قلت لك سبيني لوحدي شوية.. ماتتعبيش قلبي معاكِ..

صمتت لحظات، عرف تماما كم تتألم فيها، ثم قالت بصوت مرح، يعلم تماما أنها تمثله حتى لا تضايقه، فتضاعف ألمه القاتل:

ـ حاضر يا حبيبي.. خد بالك على نفسك..

صمت، لا يدري ما يقول، وهو ينظر لفتاته التي مازالت تنظر للأرض مبتسمة.. قال محاولا أن يبدو لطيفا:

ـ وانت كمان خدي بالك على نفسك..

ولم ينتظر ردها، وأغلق الخط..

تأملها، وهو ينظر لتلك الفتاة التي سحرت كل ذرة فيه..

نظرت له وهي تقول بابتسامة جانبية:

ـ أول راجل يخيِّب ظني.. كنت باعرف على طول إذا كان وسخ ولا لأ.. بس افتكرتك ـ مش عارفة ليه ـ نضيف..

لم يرد..

هناك أشياء إن بررناها، أصبحنا في نظر أنفسنا أقل بكثير..

وهو لا يجد أقل مما هو فيه ليهبط له!..

قالت هي:

ـ مراتك؟..

لم يرد، وإن ابتسم ابتسامة هادئة، تحمل من الحزن ما تحمله.. واتجه لباب السطح، وبدأ في هبوط السلم.. فانعقد حاجباها في تساؤل، وهي تنظر له حتى اختفى.. لصمته، وعينه الشاردة.. ومشيته..

ربما لأنها لم تلحظ حتى الآن طوال هذا الوقت تلك العرجة الخفيفة..

لا تعلم أن تلك العرجة الخفيفة لا تظهر إطلاقا..

إلا في لحظات فرحه..

أو موته!..

* * *

قال (أسامة) ناظرا لهم في هدوء:

ـ المرحلة دي من أسعد المراحل..

نظروا له باستنكار، فأكمل هو دون أن يبالي:

ـ احنا دلوقتي خلصنا المرحلة التانية كلها.. مرحلة كلنا شفنا منها كتير قوي في الأفلام والمسلسلات والمسرحيات.. العقدة والمشاعر، بعد كده النهاية.. اللي بتيجي بقى بالجواز في الأفلام العربي.. والبوسة في الأفلام الأجنبي..

سارت ابتسامة خفيفة على أفواههم، ليكمل هو:

ـ دايما كل المنتجين أو المؤلفين بيقفوا عندها لسبب.. أن خلاص كده كل المشاكل اللي في الدنيا اتحلت.. البطل بقى مع البطلة.. ودايما بتبقى المشكلة في الفيلم أو الرواية ان في سبب مش مخليهم يبقوا مع بعض.. أو واحد بيفرّق بينهم..

ونظر لهم قائلا بابتسامة:

ـ بس ضحكوا عليكوا... مافيش حد في قصص الحب بيقف في وش العلاقة.. إلا الاتنين اللي حبوا بعض أصلا!..

ابتسموا، فقال:

ـ المشكلة عمرها ما كانت في الدنيا أو في أي حاجة.. المشكلة فينا احنا، وازاي بنتصرف في العلاقة، وبنتمسك ازاي بالناس اللي معانا..

وابتسم في راحة دائما ما يشعر بها عند انتهاء المرحلة الثانية:

ـ هنا بقى خلصنا المرحلة التانية.. هنخش في الجزء اللي مش بيبجي كتير في الأفلام.. العلاقة نفسها بتطوراتها..

رفعت إحدى الطالبات يدها، فقال دون أن ينظر:

ـ (أ) واللي حصل له.. الموافقة مش معناها دايما موافقة وفرح وهيصة.. ممكن الموافقة تيجي عشان الرفض!..

نظروا له غير فاهمين.. فأخذ هو نفسًا عميقًا، ناظرًا لهم.. شيء ما يشعره أنهم بدأوا يفقدون اهتمامهم بالموضوع، والتعب بدأ يؤثر عليهم..

مازال هناك أربع ساعات متبقية.. لابد أن يفعل شيئا ما جديدا..

لكنه قرر أن يؤجله للمرحلة التالية..

ابتسم ناظرا لهم وقال:

ـ المرحلة التانية كانت أطول المراحل.. نخش في مرحلة «الحياة بقى لونها بمبي»..

وكتب على السبورة، تحت الكلمة الكبيرة «هيبتا»:

ـ المرحلة التالتة..

* * *

٣ـ العلاقة

قيل فيما مضى أن الحياة لا تكتمل الا بالحب...

ولكنهم لم يعلّمونا شيء عن الاكتمال...

الشقة المظلمة الكئيبة ثانية..

نظر (أ) لكل شيء حوله، في تلك الشقة التي ظل عقدا من العمر يعيش فيها وحده..

أغمض عينيه، وهو يقف في منتصف شقته، ولم يسمع إلا صوت موسيقاها، التي كانت تدوي في السماعات الصغيرة في ذلك السطح..

طوال عمره يرتبط عنده كل شيء بالموسيقى.. ذلك السحر الوحيد في الأرض، الذي قاوم كل الأساطير والخرافات والعلم السخيف.. وظل عبر الأزمان على قيد الحياة..

الموسيقى بالنسبة له.. حياة..

الشيء الوحيد الذي يجعله يشعر بشيء ما، بعد كل ما مات بداخله..

والآن.. هي..

شعر بغصة في قلبه، وهو يتذكر شعرها المتطاير، وحضنها الحنون، الذي ـ رغم بساطته ـ احتوى عالمه كله..

تمايل بجسده، متذكرا رقصتها معا، ثم لم يلبث أن ابتسم ساخرا، وهو يفتح عينيه وينظر حوله للشقة الميتة، لا يصدق أنه منذ لحظات قليلة كان في عالم آخر تماما..

ضرب جرس هاتفه، قاطعا كل أفكاره، فزم على شفتيه غاضبا وهو ينظر لاسمها، ثم يضغط زر الاستقبال قائلا في ملل:

ـ مش قلت لك سيبيني لوحدي؟

قالت بصوتها الحنون:

ـ ما أنا قلقت عليك..

ابتسم في هدوء، رغم كل شيء، فهي تحبه كما لم يحبه أحد من قبل.. ألقى مفاتيحه على الأرض، وهو يتجه للشرفة، التي ترك بها الكومبيوتر الخاص به، ويأخذه ليعود للغرفة. ضبط نفسه ينظر للسطح الذي رآها فيه لأول مرة، فلام نفسه وهو يعود للسرير ويلقي جسده عليه، ليدرك أنها كانت تتكلم كل ذلك الوقت، بل وتكمل:

ـ بعدين قلت لها مش هاينفع أقابله خلاص..

سأل في شرود:

ـ هو مين ده؟

صمتت لحظات، عرف فيها أنها غضبت، لكنها أكملت:

ـ العريس.. كنت باحكيلك عن خناقتي أنا وماما..

كم هي مخلصة، طيبة، رقيقة القلب..

ـ أنا مش عاوز أكمل..

قالها بهدوء جزار، يبسمل قبل أن يذبح أضحيته، ليسود صمت طويل، أدرك فيه أنها تستوعب صدمة الكلمة، ثم قالت بصوت، حاولت أن تجعله متماسكا رصينا:

ـ ممكن أعرف ليه؟..

فكر قليلا، ثم أشعل سيجارة ونفخ دخانها بقوة، ثم قال ما عرف أنها لن تفهمه:

ـ انتِ مش قد وجعي..

لتقول ما هو متوقع:

ـ مش فاهمة..

ليقول هو بسفسطائية يعرفها عندما يهرب:

ـ هي دي المشكلة..

ثم أكمل بهدوء:

ـ أنت واحدة من أحسن الناس اللي عرفتهم في حياتي.. واحدة بتعرف ازاي تبقى مخلصة.. بتنسى نفسها تماما مع اللي بتحبه.. واحدة اتخلقت عشان تبقى زوجة مطيعة هادية.. ودي حاجة في الزمن ده صعب قوي ان الواحد يلقاها.. واحدة أنا عشت كتير قوي عشان أحاول ألاقيها..

وأغمض عينيه وهو يكمل:

ـ أنا طول عمري نفسي أحس اني عادي شوية.. اني ممكن اتجوز واحدة عادية قوي.. كنت عاوز أحس اني بني آدم طبيعي ولو في حاجة واحدة في حياتي..

لم يسمع إلا صوت نهنهتها، الذي تحاول أن تكتمه، لكنه لأول مرة منذ سنين يتكلم، فلم يمنع نفسه:

ـ أنا اتجوزت قبل كده زي ما أنتِ عارفة.. كنت شاب مجنون قوي.. عاوز كل حاجة تبقى مختلفة.. عاوز الحياة كلها تبقى «بطعم».. زمان وأنا

صغير كنت باقعد أقول لنفسي «ازاي الناس الكبار بيعتبرونا صغيرين وهبل وساذجين مهما كلمناهم وحاولنا نقنعهم بالعقل والمنطق؟».. وعرفت من فترة صغيرة قوي انهم «بيهرشونا» من حاجة واحدة..

وأكمل ببسمة:

ـ من نظرة التفاؤل اللي في عنينا.. من نظرة «أنا اللي هاعمل اختلاف»..

جاوبه صمت مطبق، فابتسم قائلا:

أنت ممكن تشوفيني راجل زبالة قوي.. بس من الآخر.. أنا بعد جوازتي دي، فضلت أدوَّر على حد عادي.. حد مايوجعنيش قوي كده.. حد مابيعرفش يوجع أصلا.. ولاقيتك.. الحاجة الوحيدة المنطقية قوي.. ورضيت بيكي جدا وقلت أخيرا الحياة بدأت تضحك شوية.. هاعيش زي كل الناس..

وأغمض عينيه ثانية، ليتذكر ضحكة فتاة السطح الهادئة، وشعرها المتطاير، وصوت تلك الموسيقى التي كانت تحرك كل شيء، وقال:

ـ ومن عشر دقايق بس.. اكتشفت ان انا مش مكتوب لي أبقى طبيعي.. إن انا واحد طلع برة القطيع من زمن.. لدرجة ان القطيع مش راضي يقبل بيه تاني..

وأخذ نفسا عميقا وهو لا يضيره سلخها بعد ذبحها:

ـ ان الحب مابيتولدش غير من الوجع.. أني لازم أتوجع قوي.. عشان الحب الحقيقي لما أقابله.. يبقى هو الوحيد اللي في الدنيا، يعرف يخفف الوجع ده.. أو يشيله تماما من الوجود..

صعدت صوت بكائها أكثر، ليعود هو لنقطة البداية:

ـ فأنت مش قد وجعي.. بس كده..

أغلقت هي الخط في وجهه، لينظر هو للهاتف بنظرة فارغة.. ها هو ذلك الأمل في أن تصبح طبيعيا قد ذهب أدراج الحياة.. وها قد قتلت بيديك فتاة كانت تحب حقا..

من قال إن الجزار لا يشعر بالشفقة، ولو قليلا، وهو يأخذ روحا ما بيديه!..

ضرب جرس شقته، فعقد حاجبيه في استغراب، ونهض متحاملا على ألمه، ليفتح الباب ببطء.. ليرتجف قلبه رغما عنه..

فقد كانت أمامه، واقفة تنظر حولها بقلق..

وبعين دامعة..

نظر لها بعين استعادت روحها في ثوان.. ونظرت له بعين تسأله ألف سؤال..

ولدقيقتين كاملتين، ظلا ينظران لبعضهما، وكأنها يدور حوار كامل مفهوم بينهما..

ثم اندفعت نحوه فجأة، وهي تمسك رأسه بيديها، وتقبله قبلة طويلة..

وتثير معها تلك الموسيقى الهادئة.. موسيقى البيانو.. والكمان.. اللذين لا يجتمعان إلا في لحظات الألم..

والأمل..

* * *

ولأول مرة منذ فترة طويلة يقف (ب) في الشرفة معه أحد..

(دنيا)..

جاءت لتزوره في المستشفى في اليوم التالي، وتفاجئه، ليبتسم هو بسعادة بلهاء، وهو ينظر لها، بجسدها الرفيع وعينيها الخضراوتين الواسعتين، ببراءة فتاة في السابعة عشر من العمر.. وتضحك له ضحكة واسعة.. ليضحك هو في سعادة حقيقية، وهو يراها أمام باب غرفته المفتوح، لتدخل لحظتها الممرضة حاملة الحقنة الشرجية معها، فانتفض وهو يشير للمرضة أن تنصرف بكلتي يديه، فضحكت الممرضة وهي تغمز له، ثم تنصرف بهدوء..

وقفت (دنيا) تنظر لهما ببلاهة، فنهض من فراشه وهو يتجه نحوها، فقالت برقة:

ـ خليك على السرير.. أنا ماجيتش عشان اتعبك..

قال وهو يبتسم:

ـ ايه يا بنتي الرقة دي.. فين أيام «يشفي الكلاب ويضرك!»

ضحكت هي في سعادة، وهما يخرجان للشرفة الواسعة..

شعر بدقات حقيقية في قلبه، دقات لا يعلم مصدرها.. لكنه يعلم أنه سيذكرها طوال عمره..

أول دقات حقيقية..

وقف بجانبها، لأول مرة لا يعرف ماذا يقول.. تلك فتاة كانت صديقته لمدة ثلاث سنوات، ويأتي الآن ولا يعرف ماذا يقول!.. نظر لعينيها الخضراوتين القاتلتين، وقال بصوت هادئ:

ـ (دنيا).. وحشتيـــــ..

ليقاطعه صوت الرجل (المدخن) وهو يقول بسعادة حقيقية:

- الله يسهله..

انتفض جسده في انزعاج، في حين التفتت (دنيا) ضاحكة، و(ب) يقول:

- أحب أعرفك بالراجل اللي كلمتك من تليفونه امبارح..

وقف الرجل خلفهما، في ابتسامة وهو يمد يده ليسلم على (دنيا) قائلا:

- (عبد الحميد صالح).. محاسب..

سلمت عليه (دنيا) بابتسامة خجولة، فقال هو بسرعة:

- أنا بس حبيت اجي أتعرف على البنت اللي دوخت الواد الكئيب اللي قارفنا ده..

نظر له (ب) بغضب، في حين رفعت (دنيا) حاجبيها في دهشة حقيقية، وهي تسأل ضاحكة:

- كئيب ازاي بس؟..

قال (عبد الحميد) بسخرية:

- بيقعد ليل نهار في نفس المكان ده.. يبص على النيل ومابيكلمش حد.. مابيهزرش مع حد.. ماحدش بيزوره.. وكل ماحد يكلمه يقفل معاه في الكلام.. ومش راضي يقول لحد هو عيان بأيه ولا جي هنا ليه..

ثم أكمل بفضول حقيقي:

- هو عنده ايه صحيح.. أصله موصي الممرضات أنهم مايقولوش.. لدرجة أني افتكرتها حاجة عيب لا سمح الله..

قالها وضحك في سعادة، في حين نظرت (دنيا) للأرض بخجل،

وليتدخل (ب) بسرعة، رابتا على كتف الرجل قائلا:

- يلا يا باشا.. اتشرفنا بمعرفتك.. وانبسطت قوي لما قلت لي زمان «مالكش دعوة بحد»..

نظر له الرجل لحظات غير فاهم، ثم لم يلبث أن أدرك، فابتسم قائلا لـ(دنيا):

- انا اتشرفت بمعرفتك.. وربنا يخليكم لبعض..

وانصرف مسرعا، لتنظر (دنيا) لـ(ب) لائمة وتقول:

- كنت قليل الذوق معاه قوي..

لم يهتم، وهو ينظر لعينيها قائلا، وهو يشعر أن روحه تسحب منه:

- بحبك..

احمرت وجنتاها، ونظرت للأرض، ثم قالت باسمة:

- خلاص.. يغور الراجل..

ضحك، فضحكت هي معه، ثم نظرت للنيل وقالت بانبهار:

- المنظر من هنا روعة فعلا..

وأكملت ساخرة:

- هو أنت كنت بتقف هنا وتقول لي الحرية ومش الحرية والطيور؟.. أحب أقول لك إنك مريض يا حبيبي..

شعر بموجة عارمة من الراحة تغمره فجأة عندما سمعها، فقال متسائلا:

- يا ايه؟..

نظرت له بخجل، وقالت ببسمة:

ـ مش هاقولها تاني..

مد يده ليحتوي يدها، التي تجمدت في الأول للحظات، ثم لم تلبث أن استكانت داخل يده، وهي تقول بصوت هامس:

ـ انت مجنون..

لم يرد عليها، وهو يتأمل ذلك الشعور بالراحة والسكينة الذي يغمره وينسيه كل الآلام، في لحظات لم يشعر مثلها في حياته..

أخرجت من حقيبتها فجأة علبة مغلّفة، فنظر لها في تعجب، لتبتسم هي في سعادة وتفتحها له بسرعة، وتعطيه ما بداخلها...

امسك تلك الورقة الملفوفة، وفردها بعناية، واتسعت عيناه في دهشة..

كانت رسمة له على الطريقة الكاريكاترية، وجهه كبير وجسد صغير، ويركض في ملعب ما معه الكرة، تخرج منه بالونة الكلام المميزة في الكاريكاتير ومكتوب فيها «يا ترى احساس الكورة ايه واحنا بندحرجها كده؟»...

ومكتوب في أسفل الورقة «كلنا مستنيينك ترجع»...

ساد صمت طال، فجأة لم يعد النيل بذلك السحر، ولم يعد يهتم بكل هؤلاء البشر الذين يجلسون حول النيل، ولا بحياتهم.. ذلك الشعور الرائع لا يورثنا إلا الأنانية.. نتخيله كثيرا، ونتمناه طوال الوقت.. لكن أن نشعر به فعلا.. نحتوي تلك السعادة الخاصة لنا فقط.. طرد تلك الأفكار من رأسه.. حتى تأملاته لا يحق لها أن تزعجه في ذلك الوقت..

إنه يحبها..

وكفى!..

التفتت له لحظات، تتأمله بعينيها اللتين يذوب فيهما، ثم تنحنحت بهدوء وقالت:

ـ مش شايف أني من حقي دلوقتي أعرف أنت عندك أيه؟.. زمان كنت بتقول لي إنه سر.. وانك مش عاوز تقلق حد.. بس أنا من حقي دلوقتي أني أقلق..

نظر لها لحظات، محاولا الاحتفاظ باللحظة الرومانسية ولا يفسدها بالمرض، لكنها الآن حبيبته، ولها حق أن تعرف..

نظر لحظات للأرض، ثم قال باسما:

ـ مصممة؟

أومأت برأسها أن نعم، وهي تشد على يده تشجعه، فأخذ نفسا عميقا وهو يقول بنفس الابتسامة:

ـ أنا عندي ورم في ضهري.. ورم بيضغط على الأعصاب في مستوى الفقرة الرابعة والخامسة..

نظرت له بخوف حقيقي، وهي تضع يدها على فمها، في حين ابتسم هو في أسف، وقد استعاد جسده كل الآلام دفعة واحدة، وهو ينظر لوجهها الذي يحمل من القلق ما يحمل، فقال هو:

ـ بس ماتقلقيش يعني.. إن شاء الله هاعمل العملية وابقى زي الفل..

حاولت أن تبتسم، لكن صعدت في عينيها تلك الدموع رغما عنها، ثم قالت فجأة:

ـ أنا بحبك..

وأكملت:

ـ وأنا ماصدقت لقيتك.. فبلاش تعملها معايا والنبي..

ضحك مداريا كل ما فيه من ألم:

ـ يا بت ما صدقت لاقيتك ايه؟.. انت ١٧ سنة.. بلاش شغل الأفلام العربي دي..

ضحكت رغما عنها، ثم ضربته في كتفه، ليبتسم قائلا:

ـ بتمدي ايدك على راجلك؟.. شُفتِ؟.. عشان سكت على «يا حمار» في الأول مديتِ ايدك عليَّ..

ضحكت أكثر، في حين نظر هو لضحكتها..

وعاد لينسى العالم كله..

* * *

قال (أسامة) بهدوء:

ـ احنا هنا لازم نعرف..

قاطعته سيدة كبيرة في السن قليلا، قائلة في تركيز:

ـ هششششش.. استنى لما نخلص..

نظر لها لحظات مندهشا، في حين ضحك الطلاب ضحكات خافتة، فابتسم هو قائلا:

ـ ماشي.. نكمل..

* * *

ظلت (علا) تسير في ذلك المول التجاري الكبير، تنظر لكل شيء بشرود مع صديقتها..

مر أسبوع كامل، و(ج) يحدثها في الهاتف لمدة ساعات..

لا تعلم لماذا.. لكن كلامهما لا ينتهي..

ولاحظت طوال الوقت أنه لا يأتي بسيرة (أحمد) على الإطلاق.. لا يمدح فيه ولا يذم فيه.. يحدثها عنها هي فقط.. ويحكي عن نفسه قليلا..

تشعر طوال الوقت أنها في رمال ناعمة.. تسحبها ببطء لأسفل.. وكلما قاومت، غرقت أكثر..

وذلك السؤال السخيف الذي لا تطيقه..

كيف فعل بها كل هذا؟..

هل هي خائنة؟..

كلما تسأله ذلك السؤال، يرد عليها برد يجعلها تشعر براحة غير طبيعية:

ـ الخيانة هي أنك تسيبي حاجة صح وتعملي حاجة غلط.. فأنت مابتخونيش (أحمد).. أنت خنتيني أنا لأنك ارتبطتِ بأي حد قبلي!.. وماحدش بيقول على اللي بيسيب ذنب ويرجع لربنا أنه خان «الشيطان» مثلا!.. حتى لو فضل بيعمل الذنب ده مؤقتا.. مسيره يتوب..

وتصدقه!..

تتعجب كيف تصدقه.. لكن كلامه يلمس في قلبها راحة غير طبيعية..

لم يحبها أحد كما يحبها هو..

بل إنه يجعلها تذوب كل يوم فيه أكثر..

نظرت لصديقتها، التي تعرف كل شيء، فابتسمت لها قائلة:

ـ كلميه خليه ييجي.. لما نشوف آخر جنانك ده ايه..

لم تنتظر لكي تكمل صديقتها كلامها، وطلبته على الفور، لتسمع صوته الدافئ، الذي يجعلها تشعر براحة غير طبيعية:

ـ حبيب قلبي..

قالت بسرعة، قبل أن تتراجع في قرارها:

ـ أنا عاوزة أشوفك..

صمت لحظات، ثم قال بهدوء:

ـ مافيش مشاكل.. فين وامتى؟

قالت له:

ـ دلوقتي.. أنا في (سيتي ستارز)..

قال لها مندهشا:

ـ انت مش شايفة المطر اللي برة عامل ازاي؟.. دي بتمطر تلج!

لم تكن تعرف تلك المعلومة، فقالت:

ـ خلاص بلاش..

ـ لأ خلاص أنا جي..

قالها في حماس مفاجئ، وأغلق الخط، لتنظر هي إلى صديقتها، وتقول بقلق:

ـ ده بيقول إنه جي.. وبيقول إن الدنيا بتمطر برة..

صفقت صديقتها بجذل وقالت:

ـ الله.. أنا بعشق المطر..

نظرت لها (علا) في ابتسامة.. وأخذتا تتمشيان قليلا، حتى استسلمت لصديقتها، التي كانت تلح أن تخرج في المطر قليلا.. لا تعلم أن (علا) تعشق المطر أيضا، لكن لأسباب لا يعلمها مخلوق، حتى (ج) شخصيا..

اقتربتا من البوابة في هدوء، ليرتفع حاجبا (علا) في قلق وقالت:

ـ استني يا (منى).. المطرة دي مرعبة فعلا..

شعرت بقلق غريب على (ج)، وهي لا تعلم كيف سيأتي في هذا الجو العاصف، وقررت أن تكلمه ثانية تخبره ألا يأتي، لكن لم تلبث أن اتسعت عيناها في دهشة، وهي تراه من خلال البوابة، وهو يمشي بهدوء في الشارع رافعا ذراعيه لأعلى، وقد ابتل من رأسه حتى أخمص قدميه..

ويبتسم..

ابتسامة سعادة صافية..

قالت (منى) في تعجب:

ـ هو في ايه؟

أشارت (علا) للخارج على (ج)..

كان في عالم آخر فعلا..

نظر للبوابة، فوجدهما واقفتين خلف الزجاج، فاتسعت ابتسامته، وأشار لهما بحماس أن تأتيا إليه، فضحكت (علا) مشيرة له بعلامة الجنون، وأشارت له أن يأتي هو.. ليقف هو رافعا حاجبيه في عناد.. ثم عقد ذراعيه وهو يقف مكانه، وأشار لها أنه لن يأتي، ويجب أن تأتي هي له..

ضحكت (منى) في بلاهة وهي تقول:

ـ ده مجنون..

نظرت (علا) له، وقالت في شرود غريب وابتسامة:

ـ هو مش مجنون..

وأكملت وهي تتحرك خارجة:

ـ هو «حالة».. عمري ما عرفت زيها..

اتسعت عينا (منى) في دهشة حقيقية، في حين ظلت (علا) تنظر له وهي تخرج من البوابة، في هذا الجو العاصف والأمطار الشديدة..

لكنها لم تشعر بشيء..

ظلت تنظر لعينيه، التي أبعدتها عن كل ما يحدث حولها، وهي تقترب منها ولا ترغب إلا في أن تقترب أكثر..

وقفت أمامه، وقالت بصوت عالٍ، لكي تتغلب على صوت المطر:

ـ أديني جيت يا سيدي.. عاوز ايه مني؟

مد يديه فجأة، وأمسك وسطها، ثم أمسك يدها ورفعها قليلا، وبدأ في الرقص معها.. لتضحك هي بشدة، والمطر يغمرهما..

قال هو بصوت عال:

ـ مبسوطة؟

صرخت هي أيضا:

ـ أنا باعشقك يابن اللذين..

توقف عن الرقص قليلا وهو يبتسم، ثم أمسك بيدها مبتعدا، فقالت هي بدهشة:

ـ أنت رايح فين؟..

توقف، وهو ينظر لها نظرة تخللت إلى أعماقها:

ـ ولا أعرف.. بس مش هاممني غير أني أبقى معاكِ!..

صمتت ناظرة له، لا تدري ماذا تقول، ثم استسلمت تماما ليده، التي تسحبها كالمعتاد دون مقاومة حقيقة..

ناسية تماما (منى)، التي ظلت خلف البوابة تلوح لها بكلتي يديها..

ولكن لا حياة لمن تنادي..

* * *

نظر (د) لـ(مروة)، لا يدري ماذا يفعل..

لقد أخبرها أنه يحبها.. وكان المفترض ـ كما هو معتاد ـ أن ينتهي الموضوع عند هذا الحد، أوينتهي الفيلم عند هذا الحد..

كان يعشق فيلم كارتون اسمه (اناستاسيا).. وكان هذا نهايته..

كانت تجلس أمامه، تلعب بلعبة ولا تتحدث، ثم قالت:

ـ أنا زهقانة قوي..

قال هو ببراءة:

أنا بابا جاب (أتاري) جديد.. ومش بحب أي حد يلعب عليه غيري.. تلعبي معايا؟

نظرت له بحماس، ثم قالت:

ـ آه نفسي العب بيه.. عشان خاطري..

ابتسم لأنه أسعدها، وهو يقول:

ـ يلا بينا..

ركضا خارج شقة (مروة)، متجهين لشقته، التي وجد بابها مفتوحا، فدخلا إليها، ليسمعا صراخا عاليا، جعلهما يتوقفان في خوف..

كان صوت صراخ أم (مروة)..

خرجت أم (مروة) مسرعة من غرفة أبيه وأمه، ونظرت لهما في آخر الطرقة، بذلك الخوف البادي على أعينهما، فذهبت لهما مسرعة وهي تقول بصرامة، رغم عينيها المحمرة والارتباك البادي عليها:

ـ (مروة).. خديه وروحوا شقتنا العبوا مع بعض..

قالت (مروة) باعتراض:

ـ بس احنا عاوزين نلعب بال(أتاري)..

قالت أمها بصرامة:

ـ (مروة).. قلت لك..

قطعت كلامها، عندما تسلل (د) من جانبها، راكضا متجها نحو غرفة أبيه وأمه، وحاولت أن تلحقه، لكنه كان قد دخل الغرفة وهو يصيح:

ـ ماما أنا جيـ..

انعقد لسانه، وهو يحدق في هذا الكم الهائل من الدماء، الذي يملأ الأرض والسرير، ويخرج من معصم أمه، التي رقدت على السرير بلا حراك.. جانبها سكين ممتلئ بنفس الدماء..

وكان قد بلغ من العمر ما يجعله يدرك أن أمه لم تعد معه..

لقد ذهبت لربها..

* * *

التفت ذراعيها حول عنق (أ) في حنان، خلق لكي يلمسه..

هل بعد كل ما حدث لك.. بعد كل تلك التساؤلات.. أصبح هناك منطق ما؟..

هل استعادت الدنيا رشدها أخيرا؟..

هل تبتسم من قلبك الآن حقا؟..

ما تلك الليلة؟..

بدأتها في شرفتك، تحاول أن تشعر أي شيء.. تحاول أن تسقط، فلا يسمع عنك أحد.. تنهي ذلك الألم المتواصل السخيف.. تنهي كل شيء في ثوان معدودة.. فينتهي بك الحال بين ذراعيها؟..

قال لها بهدوء:

ـ هو أنا كان لازم أموت عشان أقابلك؟..

قالت مغمضة العينين، بابتسامة هادئة:

ـ لأ انت كنت لازم تموت عشان تعرف تلاقي في نفسك براح أنك تعيش!..

كانا على الفراش عاريين تماما.. فهَمَّ بأن يرفع الغطاء على جسديهما، كما يرى في كل الأفلام، فمنعته بيدها مبتسمة وقالت بهدوء:

ـ أنا حرة كده..

واستعادت نشاطها فجأة، فتقلبت من على الفراش، ثم وقفت أمامه واضعة يدها على وسطها قائلة:

ـ ايه رأيك فيَّ؟..

تلاقت عيناها بعينيه في نظرة طويلة، ثم سقطت عيناه لتتأمل كل ذرة في جسدها ببطء الدنيا كله.. لتشعر هي بعينيه تدفئ كل ذرة في جسدها.. احمرت وجنتاها خجلا، رغم كل ما فعلاه معا.. وفهم هو كل شيء..

أن تفعل المرأة كل شيء في الظلام، وتداري نفسها، حتى ولو كانت متزوجة، فهي تفعل شيئا غريزيا بحتا.. بل ربما أجبرت عليه أيضا..

لكن أن تسمح لك امرأة أن ترى كل شيء فيها.. فهو شيء روحاني بحت..

فهي تسمح لك بأن تستمتع بها..

تخبرك أن هذا الجسد ملكك..

فهنيئا لك به..

ابتسم وهو يفتح ذراعيه، لتضحك هي بسعادة، وتركض مسرعة لتدخل بين ذراعيه في عشق..

قال، وابتسامة بلهاء تملأ كيانه كله:

ـ أنتِ ازاي صح قوي كده؟.. ازاي مظبوطة قوي كده؟..

ضحكت هي في سعادة حقيقية، فقال هو معتدلا:

ـ أنت رجعتيلي ليه؟..

تأملته بعينيها لحظات، ثم قالت بصوت خفيض:

ـ ماعرفش..

ابتسم في ادراك، فأكملت هي ساخرة:

ـ خفت فعلا ماتحضنيش تاني..

قال وهو يضحك:

ـ مش هتنيلي تقولي لي اسمك بقى؟..

نظرت له لحظات، ثم قالت باسمة:

ـ اسمي (رؤى)..

مرر يديه على شعرها، ثم ابتسم قائلا بحنان:

ـ طبيعي أنه يبقى اسمك.. عشان أنا باعشقه..

ثم أغمض عينيه وهو ينام على ظهره ثانية:

ـ أنا حتى سميت بنتي نفس الاسم..

شعرت بألم لا تدري مصدره، وهي تقول بقلق مفاجيء:

ـ يعني أنت متجوز فعلا؟

نظر لها مبتسما، وهو يرى ذلك القلق والحزن في عينيها، ليقول مطمئنا:

ـ أنا مطلق.. اتجوزت وانا عيل صغير.. جوازة فضلت مستمرة لمدة سنتين.. حملت فيهم مراتي ببنوتة سميناها (رؤى) من قبل ما تتولد.. عاشت ٦ ثواني بعد مانزلت من بطن مامتها..

وابتسم ابتسامة سعادة عميقة وهو يقول:

ـ بعد كده ربنا اكتشف أنه ناقصه ملاك.. فأخدها مني..

ثم ضحك وعيناه شاردتان تماما:

ـ وأكيد هي عملالهم قلبان في الجنة دلوقتي.. لأنها هتطلع شقية زيي..

ارتفع حاجباها في شفقة، وابتسمت ابتسامة حنونة قائلة:

ـ أنا آسفة..

صمت لحظات طويلة، ثم قال ناظرا لها في ابتسامة مكملا قصته:

ـ بعد ما الطفلة ماتت.. بعدنا أنا ومراتي قوي.. هي شايفة أني السبب مش عارف ليه.. وانا شايف انها السبب برضه مش عارف ليه.. مع أني كنت بحبها قوي.. بحبها الحب بتاع الأفلام الرومانسية ده.. بس بعد ما الطفلة ماتت والمشاكل اللي كانت أصلا موجودة.. كل حاجة ماتت بالراحة.. موت بطئ زي ما بيقولوا.. بعدها هي قررت أنها تسيبني.. وأنا وافقت!..

لم تدر ماذا تقول، لكنه ضمها لحضنه أكثر وهو يقول:

ـ (سلمى) اللي كلمتني في التليفون وأنا معاكِ دي.. واحدة من أنضف وأخلص الناس اللي عرفتهم.. عرفتها بعد مراتي بخمس سنين.. كانت كل حاجة منطقية في الدنيا.. كل حاجة صح على حسب ما بيقولوا..

نظرت لعينيه، وقالت في إدراك، كأنها تحفظ ما سيقوله:

ـ بس أنت الصح مابقاش ينفعك..

قال مشيرا بأصبعه، كأنها يفهمها درسا:

ـ الصح بتاعهم مابقاش ينفعني..

وأشار لشئ مجهول قائلا:

ـ ربنا خلقنا نوعين.. نوع بيعيش فيها ويموت فيها من غير ما يعرف

أي حاجة عن أي حاجة.. جعلوه فانجعل.. دول اللي بتلاقيهم في كل حتة مابيحبوش الجنان ولا بيروحوا حفلات مزيكا ولا بيروحوا يحضروا ماتش كورة حتى.. خرجوا من كلياتهم اشتغلوا واتجوزوا وخلفوا.. دول اللي عاوزين الناس كلهم يبقوا زيهم.. مجرد مصيف في اسكندرية وكتابين لمصطفى محمود على شرايط قرآن كريم على تفاسير ابن كثير اللي مابتتفتحش.. مشاكلهم تافهة ونظرتهم للدنيا على قد عنيهم بس.. ضيقة قوي.. وفاكرين أنهم غير أي حد واللي بيحصل لهم ده عمره ماحصل مع حد.. بيقلدوا كل حاجة وهم مش فاهمين أي حاجة..

دفنت رأسها في صدره وهي تسأله:

ـ والنوع التاني؟

صمت لحظات وهو يضمها لصدره، ثم قال باسما:

ـ النوع التاني هو اللي بيفهم كل حاجة.. فبيفضل تايه وسط بشر مش عارفين يفهموا غير اللي حفظوه.. هم دول اللي ربنا اختارهم وتحولوا أنبيا.. وبعد ما الأنبيا خلصوا هتلاقي ربنا برضه خلاهم حاجة بتعمل فرق في الدنيا.. سيدنا إبراهيم اللي قال أكيد ربنا مش أصنام.. شوفي كام واحد حاربه بقوة غير طبيعية عشان بيقول كلام مابيخششش دماغهم.. المشكلة ان احنا كلنا عارفين القصص دي.. بس لما حد ييجي يقول كلام غريب عنهم بيكفروه ويحاربوه كأنه شيطان.. اختلفوا ايه عن كفار قريش مش فاهم!..

نظرت له نظرة ساخرة، فعرف أنه خرج عن الموضوع، فقال باسما:

ـ باختصار.. النوع التاني هو اللي بيعرف يبص على الدنيا من الخرم اللي من ورا.. فبيشوف كل حاجة على حقيقتها..

ضحكت من جملته، في حين قال هو باسما:

ـ ايه حكايتك انتِ بقى..

نظرت له لحظات، في راحة لم تشعر بها عمرها كله، قالت ساخرة:

ـ هو احنا هنحرق كروتنا كلها في ليلة واحدة كده؟

ابتسم مجاريا إياها وقال:

ـ مادام أنا قلت حاجة.. يبقى قولي حاجة قصادها..

قالت بحماس مفاجئ:

ـ أنا عاوزة أرقص لك..

عرف أنها تهرب، لكنه تركها تنهض وتتجه للكاسيت في آخر الغرفة، ناظرا لها..

* * *

قال (أسامة) ناظرا للسيدة:

ـ ينفع أتكلم دلوقتي؟

ابتسمت هي في خجل، فقال هو ناظرا لهم:

مرحلة بداية العلاقة عادة مابتبقاش محتاجة كلام كتير.. الناس مبسوطة.. كل واحد بدأ يلاقي تعريف شوية، ويكتشف الشخص اللي معاه واحدة واحدة.. الموجة بتاعة الحب العاصف اللي في الأول بتهدا شوية.. كل واحد استهلك طاقة ومشاعر معينة عشان يوصل للي بيحبه.. وكل اللي بيبقى محتاجه بعد ما بيوصل.. أنه يريح شوية..

وأكمل وهو يسير بعرض الغرفة، كعادته:

ـ السعادة اللحظية وبداية ظهور شخصية اللي قدامنا.. استطعامنا لكل

حاجة بتتقال وبتحصل في الشخص اللي معانا.. الانبهار بتاع «ايه ده.. انا مرتبط ومعايا حد بيحبني».. أنك أخيرا لاقيت اللي يترجمك..

وأكمل ناظرا لهم لحظات ثم قال:

ـ مع أن مابحبش أسترشد بالقصص بتاعتنا وأنا بشرح.. بس (أ) عرف حاجات كتير عن نفسه.. خلت إنسان سلبي زيه يسيب (سلمى) لمجرد أنه لقى حد «يترجمه».. (ب) عايش بالظبط الحالة بتاعة أن كل حاجة صح وحلوة.. (ج) عرف ازاي يخلي (علا) تنسحب من الدنيا وتسيب كل حاجة عشان تبقى معاه.. و(د).. كان الله في عونه..

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه السيدة، لكن (أسامة) تجاهلها وقال مكملا:

ـ مرحلة العلاقة، رغم أنها قصيرة ومافيهاش كلام كتير، لكن هي واحدة من أهم المراحل.. لأنها الهدف لأي اتنين بيحبوا بعض.. هي النهاية بالنسبة لناس كتير.. اللي ماحدش فيهم بيفكر «ايه اللي هيحصل بعد كده».. وبتبقى صدمة لمعظم الناس. احنا دلوقتي وصلنا لقمة الجبل.. لقمة منحنى المشاعر.. وزي ماكلنا عارفين القاعدة الثابتة.. ايه اللي بيجي بعد القمة؟..

ليردوا هم بصوت أطربه:

ـ القاع..

نظر لهم بفرحة خفية، ثم اتجه للسبورة البيضاء، وكتب فيها تحت كلمة هيبتا:

ـ المرحلة الرابعة..

* * *

٤ـ الادراك

قيل فيما مضى أن الحب عادة ما يصاحبه الألم...

لم يعرفوا أن البشر هم الجناة!

نظر (أسامة) لهم لحظات بعد كتابته على السبوره، يتأمل وجوههم المتعبة ثم قال:

ـ تحبوا ناخد راحة؟..

أومأوا برؤسهم أن نعم في إرهاق، فابتسم هو وذهب ليجلس على مقعده، ويرفع قدميه في هدوء على المكتب صامتا، في حين بدأت أجسادهم ترتاح على المقاعد، ووقف بعضهم ليفرد قدميه قليلا، وخرج البعض ليأتي بشيء يشربه أو يأكله..

قال (أسامة) ناظرا للطلبة:

ـ ايه رأيكم في المحاضرة لحد دلوقتي؟..

أومأوا برؤسهم بمعنى «جيدة»، في حين قالت إحدى الطالبات:

ـ هي حلوة.. بس أنا مش عارفة أنت عاوز توصلنا لأيه؟.. الموضوع شخصي قوي في القصص اللي احنا بنقراها.. انا افتكرت ان احنا هناخد معلومات.. نعمل ايه ومانعملش ايه.. (سلمى) دي مثلا واحدة عملت اللي عليها في كل حاجة، ومع ذلك فشلت.. ايه ذنبها في (أ) وشخصيته.. هي حبته وخلاص.. و(أحمد).. (علا) راحت لواحد تاني خالص وبتخونه.. ذنبه أيه؟..

ابتسم (أسامة) في هدوء، وقال بهدوء كعادته:

ـ تقدري تتوقعي ايه في اللي جي؟.. مستنية ايه اللي يحصل؟..

رفع طالب يبدو كبيرا في السن يده، فضحك (أسامة) قائلا بهدوء:

ـ مش أنت والنبي.. مش كل محاضرة ليَّ تعمل كده..

التفت رؤوس الطلاب لذلك الطالب المبتسم، الذي أنزل يده ثانيا، في حين قالت الفتاة وقد بدأ بعض الطلاب ينجذبون للحوار:

ـ مش عارفة.. بس اهتمامي كله بالقصص مش بالمحاضرة ذات نفسها، وده في رأيي عيب كبير في المحاضرة.. متوقعة أن المرحلة اللي جاية كلها هتبقى عبارة عن الزهق اللي بيحصل بعد الارتباط.. أو بداية ظهور عيوب الشخصيات.. بس..

قطعت كلامها في حيرة، فنظر لها (أسامة) بتركيز، فأكملت:

ـ عندي إحساس ان كل حاجة موصولة ببعضها.. في خيط مش عارفة أمسكه.. في حاجة غريبة مش عارفة افهمها..

قال (أسامة) مبتسما:

ـ كويس.. معنى كده أنك بدأتِ تحسي بيها..

نظروا له في تساؤل، فأكمل مشيرا للسبورة:

ـ بقوة حضور الـ(هيبتا)..

ونهض مكملا:

ـ اللي فاكر أن القصص هي اللي عجباه.. مش فاهم أن البطل الحقيقي في كل ده هو الـ(هيبتا).. ازاي كل حاجة في القصص مختلفة، وفي نفس الوقت شبه بعضها.. احنا كلنا كده.. مهما كانت قصصكم مختلفة عن اللي في المحاضرة بتاعتنا، كلنا بنبقى شبه بعض في المراحل دي كلها.. كل واحد فينا

مابينساش أول مرة شاف نصه التاني.. مابينساش الحاجات المجنونة اللي عملها معاه.. ازاي حتى الوجع بيبقى موجود.. كلنا أصلا بنلف وندور حوالين الوجع..

ثم صمت، كأنما يمنع نفسه عن الكلام، ثم قال:

ـ طب ليه نستعجل.. خلينا نشوف..

ثم صمت لحظات ـ كالمعتاد ـ لتأتي الكلمة بالتأثير المطلوب:

ـ أو.. نحس!.

ونظر للحضور، الذي اكتمل بعد فترة الراحة، وقال:

ـ يلا بينا..

* * *

أغمض (أ) عينيه في هدوء، وهو يتمايل برأسه يمينا ويسارا على إيقاع الأغنية..

«ده الهوى العطشان.. في قلبي بيندهك..

يا أرق من نسمة.. وأجمل من ملك..»

تشدو بها العبقرية (أم كلثوم).. على ألحان الرائع (بليغ حمدي)، الذي أبدع فيها.. هل يمكن أن يكون (بليغ) في غرفته المظلمة، ومعه ذلك العود الشهير، يلحن تلك الأغنية.. يفكر في تلك اللحظة التي تعيشها الآن؟.. يصفها بفرحها وشجنها وروعتها؟.. دائما ما يذهب بك خيالك إلى المستحيل.. ولكن لم لا؟.. أليس المستحيل من أساسه.. خلق لك؟..

فتح عينيه ليراها، وهو يشعر ـ مذهولا ـ أن تلك اللحظات القصيرة التي أغمض فيها عينيه.. افتقدها حقا..

كانت قد اختارت قميصا من دولابه وارتدته، لتتمثل في أروع حالاتها..

نظر لها وهي تتراقص على الأنغام.. على الإيقاع..

تتراقص على «الحالة»..

كيف تخلق تلك «الحالة» التي لا يفهمها.. فعلتها على السطح، وتفعلها الآن!.. وهل لا يفهم الحالة فقط؟ إنه لا يفهم شيئا.. إنه مثل من فتح عينيه على الدنيا ولم يجد سواها أمامه.. يريد أن يتعلم منها كيف يعيش.. يريد أن يتعلم منها كيف يتكلم.. وهي لا تبخل.. تعلمه بابتساماتها كيف «يكونها».. كيف يخطفها.. كيف..

يتعلمها!..

شعر بموجة هائلة من المشاعر تجتاحه.. فصاح وهو ينظر لها رافعا يديه مع كلمات الأغنية:

- «انت روحي.. وكل عمري.. ونور حياتي.. ايه أنا.. بالنسبة لك!»

ضحكت بشدة، وتوقفت عن رقصها، وهي تنظر له بحنان الدنيا.. فنهض، دون إرادة منه، ليذهب لها، ويحتضنها بشدة، فتحيطه هي بذراعيها.. في رقة وخجل، تذيبه..

تمايل معها بجسده وهو في حضنها، ثم يضحك دون سبب وهو يمسكها من يدها، ويجعلها تتراقص معه..

نعم أيها السادة.. إنها بلاهة السعادة الحقيقية..

أخذها معه، وهوى معها على الفراش، لتنظر له وهي تضحك.. فيميل عليها ويقبلها..

ذاهبا معها في عالمها الخاص..

هي التي..

تجعله..

ينسى..

العالم..

* * *

أصبحت (دنيا) تأتيه كل يومين..

أصبحت المستشفى تحمل لونا آخر غير الأبيض الممل..

أصبحت مكان سكون قلبه في يديها..

تعرفت على (سارة)، التي أحبتها من قلبها، بل وبدأت تطيل الجلوس معها، حتى أن (ب) بدأ يشعر بالغيرة منها قليلا، وهو شيء غير منطقي؛ لكنه يحسه..

كانا جالسين معها في الشرفة كالمعتاد، (ب) و(دنيا) و(سارة)، عندما أتت الممرضة بابتسامة قائلة:

ـ عندي خبر حلو..

نظروا لها بفضول، فقالت بسعادة:

ـ انت هتعمل العملية في المغرب النهارده..

وساد صمت..

شعور غريب.. مابين راحة الخلاص، وقلق المجهول..

أمسكت (دنيا) يديه في قوة، وهي تنظر له بقلق، ثم قالت للممرضة:

ـ بس النهارده عيد ميلاده..

ابتسم لها بسمة صفراء، في حين قالت (سارة) ناظرة لهم:

ـ المغرب!.. ده كمان ساعتين..

قالت الممرضة، وقد لاحظت التوتر:

ـ ماانت كنت قارفنا هاعمل العملية امتى وتزن علينا.. دلوقتي مش عاوز تعملها؟..

لم يرد عليها، وقد تجمد لسانه لحظات، فقالت الممرضة مطمئنة:

ـ ماتخافوش.. العملية سهلة إن شاء الله.. وهيطلع منها زي القرد..

وعندما وجدت الصمت المخيم عليهم، شعرت بالحرج ثم قالت:

ـ هاسيبك عشر دقايق، بعد كده هاجي آخدك عشان أجهزك للعملية..

وتركتهم مسرعة، فتبادلت (سارة) و(دنيا) نظرة خاصة، و(سارة) تقول بابتسامة:

ـ ايه يا عم.. سهم الله نزل عليك كده ليه؟.. مانا واقفة معاك أهه وعملت خمسين عملية.. دانا لو ماعملتش عملية كل أسبوع أقلق.. أدمنت البنج..

ضحكت (دنيا) ضحكة مفتعلة، وهي تمسك يده أكثر، في حين أعطاهما هو ظهره، واستند على سور الشرفة..

هل يملك الرجال تلك الحاسة السادسة أيضا؟..

لماذا يشعر أن هناك شيئا ما خطأ؟..

مر عليه شهر في المستشفى، وهو ينتظر في ملل بشع.. لماذا يشعر الآن

فقط أن كل ما انتظره لم يكن كافيا؟..

يريد أن يمضي وقت أكثر مع (دنيا)..

لماذا الآن؟..

لم يشعر بشيء مما حوله، وهو ينظر للنيل ثانية، بنفس النظرة الكئيبة التي كان ينظر له بها منذ فترة.. لم يشعر بـ(دنيا) وهي تخبر أهلها في الهاتف أنها ستذهب للدروس بعد المدرسة مباشرة، لكي تظل جانبه حتى خروجه من العملية..

لم يشعر بدموع (سارة) الطيبة، التي تعرف ما يمر به جيدا..

لم يشعر بشيء على الإطلاق..

* * *

هل كانت هناك صعوبة في ترك (أحمد)؟

بالتأكيد لا

مكالمة لم تزد عن عشر دقائق.. مع بعض من عصبيته وسبابه للدنيا.. وانتهى الموضوع..

وشعرت (علا) أنها حرة..

كلمت (ج) مبتسمة، ليرد عليها رده المعتاد:

- أيوة يا (علعولتي)..

ضحكت قائلة:

- انت مش هتبطل اسم الدلع ده؟.. أنا باكرهه..

ثم قالت مسرعة، قبل أن يرد برد ساخر كعادته:

ـ أنا سبت (أحمد) خلاص..

صمت هو تماما، صمت أقلقها.. فقالت بتوتر:

ـ أنا عارفة أني اتأخرت.. شهرين كتير.. بس أنت عارف أني تقريبا ماكنتش بكلمه.. كنت بسيبه بالراحة عشان مايتوجعش..

لم يرد أيضا، فقالت:

ـ رد عليَّ..

وبعد فترة صمت، كادت تلقي فيها بالهاتف، سمعت صوته الدافئ يقول:

ـ هاقابل باباكِ أمتى؟..

جاء الدور عليها، لتصمت هي تماما من المفاجأة، ثم قالت متسائلة بحذر:

ـ أنت بتتكلم جد؟

ضحك هو لحظات، ثم قال:

ـ أنا عمري هزرت في الحاجات دي؟..

ابتسمت، وتصاعدت الدماء في وجنتيها، ثم قالت:

ـ بس أنا لسة ماعرفكش قوي..

قال، بسحره الذي تقلقها كثرة عشقها له:

ـ محتاجة تعرفي عني ايه غير أني خطفتك من الدنيا كلها؟..

قالت مبتسمة:

ـ هو أنت ازاي بتعرف دايما تقول الحاجة الصح قوي كده؟.. أنا عمري ماحسيت أنك عندك ٢٥ سنة..

صمت هو لحظات ثم قال:

ـ أنا واحد طيب.. باعرف أرسم حلو قوي.. بحب أعيش كل حاجة صح قوي.. بحب أستمتع بكل حاجة، أستمتع بكل إحساس صغير الدنيا بتديهولنا.. وعايش لوحدي تماما.. مافيش قرايب ولا أهل هيضايقوكِ.. وبحبك فوق ماانت تتخيلي.. عشان كده عاوز أتجوزك..

ثم صمت لحظات، كأنما يفكر:

ـ الدنيا أصغر من أننا نقضيها زعلانين.. نسيب الزعل للناس الفاضية.. خلينا مشغولين احنا بالانبساط..

ضحكت، فقال هو بحماس:

ـ هاقابل باباكِ امتى يا (علعولتي)؟..

* * *

هناك شيء غير مفهوم له..

نظر (د) لكل ما حوله بنظرة فارغة، من المستحيل أن تراها في طفل في هذا العمر..

أين أمه؟..

مرت شهور طويلة أو قصيرة.. ومازال يتذكر وجه أمه، الذي اختفت فيه نظرة الحنان، وحل محلها جمود مرعب..

يتذكر بكاءه وهو يهزها كي تستيقظ من ذلك النوم العجيب، فلا ترد عليه.. لأول مرة في حياتها. ترك ذلك داخله شعورًا مؤلمًا لا يفهمه.. ذلك

الألم الذي يجعلك تبكي متواصلا كي ترتاح، ولا ترتاح منه.. ولا تفهم من أين يأتي..

أين أمه؟..

مازال يتذكر دخول والده عليهم وهو يبكي، ويجلس في ركن الغرفة.. والده الذي نظر لأمه بنظره حزينة لكن باردة، لم يفهمها (د) أبدًا.. وذهب أبوه إليه ليخرجه من الغرفة، لكن (د) أخذ يبكي مصرا أن يبقى في ذلك الركن بالذات، مقاوما أبيه مقاومة عنيفة. وعندما سأله والده في عنف لماذا يصر على الجلوس، لم يكن في حالة تسمح له بالشرح..

لقد شعر أن أمه تعاقبه، لأنه جلس بعيدا عنها يلعب ولم يذاكر.. لذا فعل ما يفعله كي يصالحها.. يجلس على (النوتي تشير)، حتى تعرف هي أنه يعرف أنه أخطأ.. وتستيقظ لتأخذه في حضنها ثانية، كعادتها..

أين أمه؟..

وأين هو؟..

ولماذا تغير كل شيء في سرعة؟..

مازال يتذكر (مروة) وهي تأخذه في حضنها وهو يبكي، وتقول له ببراءة:

- انا هابقى مامتك خلاص.. ماتزعلش..

ثم تعقد حاجبيها قائلة في صوت عال:

- روح ذاكر وإلا هاضربك..

لكن محاولتها لم تفعل الا أن زادته بكاء.. هو لا يريد إلا أمه.. ما الصعوبة في ذلك؟.. يريد أن يشعر بها حوله.. أن يشعر بذلك الأمان، أنه مهما فعل

ستكون موجودة.. يفتقد صوتها وقبلتها له، ولعبها معه، وحمله وهو نائم لكي تدخله لغرفته..

مازال يتذكر ذلك الشجار بين أبيه وأم (مروة)، الذي لم يفهم شيئا منه. ترددت الكلمات بين (كافرة) و(حرام عليك) و(مافيش عزا هيتعمل) وكيف كانت أم (مروة) منهارة في البكاء..

يتذكر أباه وهو يأخذه في حضنه، الذي كان يخاف منه، بسبب احتكاك ذقنه الطويلة بخده الناعم..

يتذكر البيت الفارغ تماما من أي روح.. وكثرة جلوسه في بيت (مروة)، التي بدأت تمل من صمته وكآبته..

يتذكر عودة أبيه يوما ما بعد فترة لا يعلم طولها، بسيدة أخرى في البيت، وهو يقول له في هدوء إنها أمه (الجديدة)..

يتذكر ركوضه لذلك الركن في الصالة باكيا في الليل، معاقبا نفسه أكثر، عسى أن تصالحه أمه، بعد فترة خصام طالت..

تعود عندما يسأله أحد عن أمه أن يقول «ماما راحت الجنة»....

والآن.. ذلك الشعور بالفراغ.. وأن ذلك البيت ليس بيته..

أين أمه؟..

* * *

سمع (أسامة) صوت نهنهة وشن، فرفع عينيه، ليرى بعض الطالبات قد احمرت أنوفهن، فقال باسما:

ـ نفسي مرة يعدي الجزء ده من غير زعل...

لم يرد عليه أحد، فقال:

ـ نكمل قراية..

* * *

بدأ نور النهار يتخلل غرفته، فنظر (أ) لنافذته وقال في دهشة:

ـ ايه ده؟.. هي الدنيا لسة ماشية برة؟..

ابتسمت وهي تفهم تماما ما يعنيه، فنظر لها وقال:

ـ مش هتقوليلي بقى اللي عمالة تجري مني فيه ده؟..

أغمضت عينيها بمعنى ياللملل، ثم قالت مستسلمة:

ـ عاوز تعرف ايه؟..

مرت في عقلة أسئلة كثيرة، لكنه لم يكن يريد أن يسألها أي سؤال، لذا قال بعد فترة صمت، ناظرا لها مباشرة:

ـ عاوز اعرف ايه اللي حصل؟.. ايه اللي خلاكي زيي؟!..

رفعت حاجبيها في إعجاب، ثم قالت:

ـ سؤال في الجون قوي.. مابتضيعش وقت أنت..

قال في سخرية افتقدها:

ـ بعد كل اللي احنا عملناه ده وبتقولي عليَّ أنا اللي ماباضيعش وقت؟..

صمتت لحظات وهي تنظر للأرض، ثم قالت بأسلوب هادئ، متظاهرة باللا مبالاة:

ـ أنا واحدة بنت ناس.. عيلة متوسطة بس مستواها كويس.. خريجة إعلام.. حبيت واحد من أول سنة في الجامعة ليّ.. قعدت معاه لحد

ماتخرجنا.. اتقدم لأهلي.. وافقوا عليه.. اتخطبت له.. بعد كده واحنا رايحين نشوف الشقة.. اغتصبني..

نظر لها (أ)، مندهشا من تلك البساطة التي نطقت بها الكلمة، ثم قال ببسمة:

ـ اغتصبك ازاي؟.. أكيد يعني انت وافقتيه..

ضحكت ساخرة ثم قالت:

ـ يا ريت.. دخلنا الشقة ولسة بنبص عليها، لاقيته هجم عليَّ فجأة، ولما افتكرته بيستهبل أو بيحبني قوي كده.. قفشت عليه وبعدت عنه وقلت له مايِنفعش.. اتعصب قوي.. وراح ضربني بقوته كلها.. وخدني بالعافية..

انعقد حاجباه، وهي تكمل بأسلوب في الكلام سريع:

ـ وبعد ما خلص وسابني.. نزلت جري.. وروحت وانا شكلي زبالة وهدومي مقطعة بتاكسي وقف لي بالعافية.. لاقيته كلم عيلتي وقال لهم «أنا ماعرفش هي راحت فين والمفروض كانت تقابلني وماجاتش».. بعد زعيق متواصل واتهامات زبالة صدقوني.. راح هو قالهم بعد ضغط أنه كان مش في وعيه.. كان ضارب حاجة.. وانهم لو ما وافقوش يجوزوني ليه هيفضحني ويقول إنه نام معايا بإرادتي.. والناس هتصدقه لما جوزي اللي جي يكشف ويلاقي ان انا مش عذراء..

قال (أ) بهدوء وهو يمسك يدها:

ـ حيوان يعني..

قالت، كأنها لا تسمعه، وهي تنظر للأرض قائلة:

ـ المشكلة أن بعدها أهلي بدأوا يزنوا أني أوافق.. وأبويا قفش عليَّ وقعد

يلاقي له مبررات.. كل الرجال بتشرب حشيش.. وهو لسة عايزك.. وانت اللي حبيتيه وخلتينا نوافق عليه.. نعدّيها.. وهو حلف أنه مش هيعمل كده تاني.. كلام المطيباتية ده..

ثم نظرت له لأول مرة منذ أن بدأت أن تحكي، وقالت:

ـ عارف لما أنت تخسر كل حاجة في حياتك بسبب غلطة مش غلطتك؟

أومأ برأسه إيجابا، فأكملت:

المهم، مع رفضي.. عملت معاهم اتفاق، بعد شهور من المعاملة الزبالة.. اني اعيش لوحدي بعيد عنهم وأصرف على نفسي وهم يقولوا للناس اني سافرت اشتغل برة..

ولأول مرة لمعت في عينيها دمعة وهي تقول:

ـ ووافقوا..

ثم ابتسمت في سرعة، وهي تمسح دمعة كادت أن تتسلل:

ـ بس يا سيدي.. هي دي قصة حياتي..

نظر لها (أ) لحظات، ثم اقترب منها، وحضنها في صمت تام..

لا يدرك انسان على وجه الارض معنى أن تقول فتاة كل ما قالته بهذا الهدوء...

معناه أن الموت جعل كل شيء.. عادي..

يقال بلا مبالاه... يقال كأنها هو جزء من حياة شخص اخر بعيد عنك.. اعتراف قاسي بأن الحياة لم تترك لك مجال لتتنفس... وانت تقبّلت..

وبصدر رحب..

قالت هي محاولة تغيير الموضوع:

ـ انت بقى ايه اللي واجعك؟

قال وهو ينظر للسقف، ويشعر أن الدنيا كلها ملكه وهي بين ذراعيه:

ـ مش هاجاوب على السؤال ده إلا لما تجاوبي على السؤال ده..،

نظرت له، فقال بابتسامة وهو يمسح على شعرها:

ـ تتجوزيني؟..

ورغم غرابة كل شيء...

جاوبته هي بصمت..

علامة الموافقة..

* * *

كل شيء كان يمر بالتصوير البطيء..

كان يرتدي رداء العمليات، الذي هو عبارة عن شيء رقيق، يصل لفوق الركبة، ويغلق من الخلف كرداء المجاذيب، ويجلس على كرسي متحرك، كي يذهبوا به لغرفة العمليات..

وقف كل من يعرفه في تلك المستشفى ينظر له في غرفته، وهم يودعونه بابتسامة.. نظر (ب) لدموع (دنيا) القلقة، تنظر له بخجل غير مفهوم.. وابتسامة (سارة) المشجعة، والتي تنظر له أيضا بخجل غير مفهوم ودعابات (عبد الحميد).. لكن ما استغربه حقا، هو إشارة الممرضة له بشيء ما لم يفهمه، فقال (عبد الحميد) ضاحكا، بعد أن يأس في أن يفهم (ب):

ـ يابني اقفل رجلك يابني انت قاعد والفستان ده فاضحك..

ضم (ب) ساقيه في حرج، ضاعت اللحظة الحزينة بكل معنى الكلمة..

لكن بقي إحساس التصوير البطيء القاتل، والممرضة تدفعه عبر طرقات المستشفى حتى غرفة العمليات، شيء ما تشعر به، ان كل شيء يضيق عليك.. وحالة سكون غريبة كأنها تتقبل الموت كشيء طبيعي لابد له من أن يحدث يوما ما.. هل تلك الرائحة الدائمة في المستشفيات هي رائحة المطهر فعلا كما يقولوا؟.. أن انها رائحة مخدرة تجعلك تختلف كل يوم عن التالي..

جعلوه ينام على فراش طبي طويل، ونظرت له دكتورة التخدير قائلة بابتسامة، تحاول أن تجعلها مطمئنة:

- أخبارك ايه؟

قال بارتباك:

- مش عارف.. بس ليه بتخلوا الواحد يفضل لوحده قبل العملية؟..

- عاوز مين يبقى معاك يعني؟

ابتسم وهو يقول في بساطة:

- أكيد ماما..

ابتسمت الدكتورة، وقالت وهي تضع شيئا ما على وجهه:

- عد لحد ١٠

قال بهدوء:

- عشرة مش كفاية عشان انـــــ..

وسقط في ظلام عميق..

وفتح عينيه فجأة..

شعر بها بنفس السرعة.. مجرد إغلاق العين وفتحها..

وجد نفسه في غرفته المعتادة.. وبعد قليل من الجهد، ميز وجود كل من (دنيا) و(سارة)..

أغمض عينيه ثانية، وقد أدرك أنه مازال حيا، فابتسم في سعادة، ثم فتحها ثانية ليرى من حوله بوضوح أكثر..

أول ما رأى هي (دنيا)، فابتسم لها قائلا:

ـ بحبك..

لم يفهم لماذا، لكنها انفجرت في البكاء فجأة، وارتمت في حضنه باكية..

نظر لـ(سارة) ليجدها تبكي بكاء صامتا هي الأخرى، ونظر للطبيب، الذي تجهم وجهه، فتساءل بقلق:

ـ في ايه؟.. ايه اللي حصل؟..

نظر له الطبيب نظرة جامدة... نظرة حزينة تحاول أن تبدو رسمية ومطمئنة.. وتفشل تماما في فعل أي شيء منهما..

ثم قال له كل شيء..

ولم يفهم شيئا على الإطلاق..

كل ما فهمه أن حدث ما توقعه بالظبط..

لن يعود أبدا كما كان..

وأن الألم لن يذهب بعيدا..

وسيأكل من روحه أكثر..

* * *

قال (ج) لها في ذلك الكافيه المحبب لهما:

«المشكلة في حبك.. انه إدمان!»

ضحكت وهي تريح رأسها على صدره، ربما لتشعر بدفء قلبه، بدقاته الحنونة، أو لأنها لا تجد مكانا آخر في العالم تستطيع أن تغمض عينيها فيه بذلك الأمان، ليكمل هو وهو يمسك يدها، ويمرر أصابعه على أصابعها:

« ـ المشكلة في حبك.. أنه بقى كل حاجة.. أني أحيانا واحنا بنتكلم باسرح وبانسى مين فينا اللي بيتكلم من كتر ما انت أنا.. عارفة لما الواحد يحس ان قلبه متبعتر في كل حتة.. وجت واحدة قعدت تجمع فيه لحد ما بقى كامل؟.. الناس فاكرة ان الحب هو انك تلاقي «حد» يشيلك في قلبه وتحس معاه بحاجات لطيفة.. مايعرفوش ان الحب هو انك تلاقي حد.. وتخلقي له قلب مايعرفش غيرك.

ذابت فيه أكثر، ولم تعبأ حتى بمن ينظر لهم في الكافيه وهي بين ذراعيه هكذا، هي مع رجلها، وهو راضٍ.. وهذا هو ما يهمها..

قالت باسمة:

ـ أنا باعشقك..

أزاحها برفق، وهو يمسك ذلك المنديل، ثم يخرج من جيبه ذلك القلم.. ويغمض عينيه..

وبدأ يرسم..

أخذت تتأمله بعشق..

دائما ترى تلك الهالة التي تحيطه، عندما يرسم بالذات..

يدخل في عالم يخصه وحده، ولا يعلم أحد عنه شيئا..

مر وقت طويل تلك المرة حتى انتهى، ونظر لها بسعادة وهو يعطيها الورقة.. لتتسع عيناها في انبهار..

كان مكتوب أعلاها «كيان دقيقة»..

ورسم وجهها، وقد ارتسمت عليه أجمل علامات الراحة، والسعادة والفرحة..

وأمامها يده فقط، تحمل ذلك الخاتم الماسي، ومكتوب في زاوية المنديل «مش قلت لك هاخليكِ تحبيني.. واتجوزك»؟

«will you marry me?»

قالها بالإنجليزية، كما قالت له هي مرارا انها تحب تلك الكلمة بالذات بالإنجليزية.. تشعر أنها أكثر رومانسية. سمعتها منه، فرفعت عينيها عن المنديل، لتجده راكعا على ركبة واحدة، مادا يده إليها بعلبة قطيفة، بها خاتم فضة رقيق، ثم أدركت فجأة معنى الكلمة..

لقد رسم لها مستقبلها بدقيقة واحدة..

توقع رؤية وجهها وهي في تلك الحالة..

وكالمعتاد.. رسمه بدقة..

ضحكت في سعادة، وهي تنظر حولها لعيون الفتيات المبتسمة، وعيون الرجال الساخرة، ثم التفتت له وقالت أغبى شيء يمكن أن يقال:

ـ بس أنت عارف اني موافقة.. ليه عملت كده؟..

ابتسم هو وقال:

ـ مش معنى أنك موافقة أني مابسطكيش.. مش معنى أنك موافقة..

أني ماالحسسكيش قد ايه أنت أميرة في قلبي واني هاحاول أعمل كل حاجة عشان أسعدك..

ضحكت في سعادة، وهي تأخذ الخاتم، ثم تلبسه في أصبعها مبتسمة..

تتأكد كل يوم أن مستقبلها لن يكون إلا معه..

* * *

قال (يحيي) ساخطا:

ـ انت متأثر بالافلام الأمريكية قوي..

قال رجل أربعيني هذة المرة بدلا من (أسامة):

ـ لا المرة دي أنا مصدق.. انا لسة ابن أختي عمل كده مع مراته ساعة ما اتقدم لها.. مش د. (أسامة) اللي متأثر بالغرب.. احنا كلنا اللي بقينا غربيين..

ابتسم (أسامة) ناظرا للرجل، فقال (يحيي) بعناد:

ـ برضه مش داخل دماغي الجو ده..

وقبل أن يرد (أسامة)، قال بسرعة مكملا:

ـ بس تعالى نكمل..

قال (أسامة):

ـ مافيش تكملة.. كده المرحلة خلصت..

نظروا له مندهشين، فأكمل هو:

ـ على عكس ماتوقعت الطالبة اللي معانا.. مرحلة «الادراك» مش مرحلة اكتشاف العيوب.. بالعكس.. هي مرحلة إدراك المسئولية.. مرحلة إدراك ان بقى في حد فعلا وانا عاوز أكمل معاه.. المرحلة دي بتبقى من

أغبى مراحل الـ(هيبتا) لسبب.. أن القرار بييجي من غير دراسة.. بيبقى قرار احتياج.. أنا عاوز أكمل وخلاص.. القلب بيتكفل أنه يداري العيوب كلها عن العقل.. ويخليه بس يحس بمسئولية أن لازم يوصل لآخر العلاقة.. الجواز بقى أو الجنس.. أو أي نهاية الواحد بيسعى ليها..

ثم أخذ نفسه قائلا:

ـ م الآخر كده.. كل القرارات بتتاخد في المرحلة دي في مجتمعنا.. بيبقى الحب بس سبب كافي لتكافؤ العلاقة.. كل واحد بيلتزم بوعود هو مش قدها.. بيشوف الدنيا ربيع وانه قادر يعمل كل حاجة.. فمرحلة الادراك هي أسوأ مرحلة فعلا، لأن عادة الندم بيحصل بعديها.. وبيحصل بعديها بمرحلتين.. جزء كبير قوي من القرارات دي بيبقى فيه هرمونات وطاقة و «غشومية» زي مابيقولوا..

وأكمل متجها للسبورة في حماس:

ـ وده يودينا للمرحلة الخامسة..

وكتب تحت كلمة (هيبتا) بحروف عريضة:

ـ المرحلة الخامسة.. «الحقيقة»..

* * *

٥ـ الحقيقة

لا توجد حقيقة مطلقة... مجرد أكاذيب عشقوا تصديقها..

قال (أسامة) بابتسامة مرحة:

- احنا المرة دي هنناقش المرحلة بأسلوب مختلف تماما.. نكسر الملل شوية.. أو ندخلكم وسط الأحداث أكتر..

ثم بدأ يرسم على السبورة عواميد طولية، مقسما إياهم، ثم التفت لهم قائلا:

- قدامكم ربع ساعة تقروا فيها المرحلة الخامسة في سركم.. بعد كده نتناقش في آرائكم..

نظروا له في عدم فهم، فقال بهدوء:

- احنا عمالين نقرأ من أول المحاضرة لحد دلوقتي.. المرة دي هيبقى في تفاعل منكم..

لم يفهموا أيضا، وهو في الحقيقة لم يكن يفهم أيضا.. تلك كانت أول مرة يجرب فيها شيئا كهذا، ربما لأنه لم يحظ بهذا الاهتمام في محاضرات سابقة، طلاب من أول الثانية والعشرين إلى الخمسين سنة.. يسألون طوال الوقت، يحاولوا أن يفهموا حقا.. فلماذا لا يحاول معهم أن يجرب شيئا جديدا، يحرك به المحاضرة قليلا؟.. قال بابتسامة:

- في مجموعة منكم هتقرأ (أ)، ومجموعة هتقرأ (ب) ومجموعة (ج) ومجموعة (د).. وهتفهموا لما تخلصوا..

تم اختيار المجاميع بسرعة، وجلس (أسامة) رافعا قدميه على المكتب، كعادته.. وأغمض عينيه..

تذكر أول محاضراته، عندما كانت (هيبتا) مجرد مصطلحات علمية وتداخل في سيكولوجية النفس البشرية.. الاعتماد والاتكاء والتعايش والتسامي والشيزوفرانيا المجتمعية.. عندما كانت مراحلها تبدأ بـ ٢٥ نقطة في كل مرحلة.. ويشرح هو كل نقطة بنفس الأسلوب.. كان من يحضرون لا يزيدون عن ٥ من طلاب العلم النفسي، وكانوا لا يفهمون شيئا وينصرفون مسرعين.. وتبقى في النهاية فتاة مسكينة لآخر المحاضرة، ولا يكون هدفها الفهم على الإطلاق.. بل السعي وراء عريس، قد يتأثر باحترامها المبالغ فيه، والذي ـ بخبرته ـ يعرف أنه ظاهري تماما..

أمسك هاتفه المحمول، وكتب في الـ(واتس اب):

ـ وحشتيني على فكرة..

ليجدها تكتب على الفور، كأنها كانت تنتظره:

ـ وانت كمان وحشتني قوي.. في بنات حلوة في المحاضرة؟

ابتسم في حنان وهو يكتب:

ـ مافيش واحدة أحلى منك لحد دلوقتي..

ثم كتب مازحا، كي يغيظها كعادته:

ـ بس أول ما الاقيها صدقيني هنفض لك..

لترد:

ـ هاقتلك يا أسامة..

ضحك، حتى أن الطلاب نظروا له، لكنه لم يلحظ وهو يكتب:

ـ سبع سنين جواز ولسة بتغيري؟

لتكتب هي باسمة:

- ولو بعد عشرين سنة.. هافضل أحبك برضه وأغير عليك وأقتلك عادي جدا:)..

- بحبك..

ثم كتب بسرعة:

- طيب سلام دلوقتي عشان أكمل المحاضرة.. أنا في المرحلة الخامسة..

ونهض ناظرا لهم.. بدأت علامات التأثر تبدو عليهم.. يعشق تلك اللحظة، التي تبدأ النساء فيها بالبكاء وتحتقن وجوه الرجال.. يعلم أن ذلك الإحساس قد وصلهم بأسلوب أو بآخر.. أن توصِّل إحساسا معينا واحدًا، أكثر فائدة من مائة معلومة علمية جامدة..

صفق بيديه وهو يقول:

- انتهى الوقت..

ونظر له كل الطلاب في تركيز..

* * *

قال (أسامة)، مستمتعا بتجريب تلك الطريقة معهم:

- دلوقتي من مجموعة (أ).. مين يقدر يحدد لي اسم الإحساس اللي مسيطر على قصته في المرحلة دي.. ومين يقدر يربط بينه وبين حياته الشخصية؟..

طلت البلاهة واضحة في أعينهم، فقال باسما:

- بالراحة طيب.. مرحلة «الحقيقة» دي مرحلة بسيطة قوي.. بس احنا لازم نبدأ بتحديد أسماء المشاعر ونربطها ببعض.. يعني مثلا هاساعدكم في أول واحدة دي.. الإحساس اسمه..؟

رفع أحد الطلاب يديه من مجموعة (أ)، فابتسم (أسامة) وقطع كلامه، وأشار للطالب قائلا:

- اتفضل..

قال الطالب، وهو رجل ثلاثيني بدأ يغزو شعره بياض وراثي، بتردد:

- اسمي (حمزة).. السيطرة.. قصة (أ).. هو ده الإحساس اللي بدأ يظهر..

ارتفع حاجبا (أسامة) إعجابا وهو يقول:

- الله ينور.. وبما أنك انت عرفته.. قصتك معاه ايه.. أو عملت زي (أ) في حياتك ازاي؟..

قال (حمزة) بهدوء:

- أنا قصتي مختلفة شوية.. أنا اتجوزت جواز صالونات عادي جدا.. أنا مهندس بترول.. باسافر كتير.. ووالدتي جابت لي عروسة وكان شكلها لطيف فاتخطبنا بسرعة.. المهم عشان ماطولش عليك.. فترة الخطوبة كانت روعة.. بس هي قالت لي عيب صغير فيها إنها «حرة» قوي.. بتكرة الراجل اللي بيحب يسيطر عليها.. أو يأمرها من غير تفكير وكده.. وطول مانا مش باعمل كده هي لوحدها هتبقى ملكي.. بس باختيارها.. ولو عندي مشكلة في الموضوع ده بلاش نكمل..

التفتت إليه رؤوس الطلاب، فتردد لحظات ثم أكمل:

- المهم بعد ما اتجوزنا، تصرفاتها ما اتغيرتش كتير.. بس إحساس الراجل بعد الجواز بيختلف تماما.. بيشيل مسئولية بيت، وشايفها هي عرضه وشرفه.. منعتها من النزول طول ما انا مسافر.. حتى ماتزورش مامتها.. منعتها من الكلام في التليفون.. ولازم تحكي لي كل حاجة بالتفصيل ولما ارجع بقى تبقى براحتها.. وبالتالي وصلنا لطريق مسدود.. واللي بيننا طفلة مخليانا مكملين.. بس مابقيناش أصلا متجوزين.. بعدنا قوي..

أوما (أسامة) برأسه وهو يقول:

ـ بالظبط زي اللي حصل مع (أ)..

ونظر لجميع الطلاب حوله، كي يستطيع أن يشرح لكل من ينظر له دون فهم:

ـ بداية المرحلة كانت إقناع (أ) لـ(رؤى) بالجواز.. عدم تصديقها لجنونه، وهو بيقول كل حاجة هو حاسسها..

وأشار لسطور ما على الورق، وقرأها..

* * *

قال (أ) وهو يمسك بيديها:

ـ الحياة أصغر من أننا نعيشها بعيد عن بعض أكتر من كده.. أنا عايزك ليَّ أنا لوحدي.. مش عايز حتى الهوا يشاركني فيكِ.. ووعد أني هافضل عمري كله مش باعمل حاجة غير أني أبقالك.. وأعرف قيمتك قوي.. ولا هازهق ولا مشاعري ليكِ هتقل لحظة.. ومش مستني منك غير أنك تبقى بتاعتي بس..

ثم صمت لحظات، وهو ينظر لعينيها الدامعة، ويكمل:

ـ وكل اللي مستنيه منك أنك تقدَّري ضعفي.. تقدَّري وجعي.. ولو ضايقتك تفهميني وتقولي لي عشان مااعملش حاجة فيكِ تاني..

لتضحك هي وسط دموعها و.. إلخ إلخ..

* * *

قالها (أسامة) مقاطعا نفسه، ونظر لهم مكملا:

ـ الواحد بيغلط غلطة دايما في بداية المرحلة الخامسة.. بيوعد وعود كتير قوي، هو مش عارف عمقها ولا آخرها.. بداية المرحلة الخامسة هي بداية ظهور ضعف كل واحد في العلاقة.. عقده النفسية.. وجعه.. كل الوحش بيبدأ يظهر على السطح، لأن كل الحلو خلاص اتعرف في المراحل الأربعة

الأولى.. واحنا كلنا بني البشر فينا الوحش قوي ونقط ضعف كتيرة جدا.. لازم تظهر مهما حاولنا نخبيها..

ونظر لـ(حمزة) مكملا في حماس:

- هنا (رؤى) وافقت.. حست انها أخيرا لقت الراجل اللي يقدّر.. انها مستعدة تعمل كل حاجة عشانه.. فوعدته، وبرضه هي مش عارفة كل الوحش اللي فيه وفيها.. المهم.. بجنانهم المعتاد، راحوا لأول مأذون وكتبوا كتابهم، مع شهود بيتدفع لهم فلوس عند المأذون.. وفي ثواني بقى (أ) و(رؤى) اتنين متجوزين.. وفي قمة سعادتهم..

وأكمل وهو يرفع أصبعه، كأنما يعد شيئا ما:

- عشان يظهر أول إحساس في المرحلة الخامسة.. هي السيطرة زي ما (حمزة) قال.. بس أنا هاحدد عنه شوية.. «الامتلاك» في العموم.. إحساس السعادة الصافي اللي بتبقى عاوزه ليك لوحدك.. الامتلاك غير الغيرة على فكرة.. وهنعرف الفرق كمان شوية.. المهم.. بدأ (أ) يحس أنه عاوز يمتلك (رؤى).. عدت عليهم شهور كتير، خلصت كل المتع الرومانسية والجنسية.. وبدأت (رؤى) تتخنق شوية..

وأخذ نفسه، وهو يتجه للورقة ثانية، ويقرأ..

* * *

نظرت له (رؤى)، لا تدري ماذا تفعل..

(أ) كان شخصا موجوعا دائما.. لا يثق في أي شيء في الدنيا على الإطلاق.. إنها حقا تشعر بأنه ملكها، بل وتكتمل به.. مازالت بعد تلك الفترة تراه فارسها، الذي انتزعها من كل ما في الدنيا من هموم..

لكنها تتألم من تلك النظرة القاتلة في عينيه..

نظرة «سوف تتركينني»..

تراها في عينيه وهو يتركها ليذهب لعمله.. تراها في عينيه عندما تعود من عملها، ويكون هو قد عاد قبلها.. تدرك من تلك النظرة أنه توقع أنها ستهرب منه.. أنها لن تعود له ثانية..

أقسمت له مرارا أنها لن تجد في الحياة من هو مثله، ذلك الرجل الذي اختطفها من الدنيا، ليجعلها تعيش في جنته الخاصة.. تقسم له أنها تعشقه.. لكنه كان يرد برد سخيف:

- أنت بتقولي كده بس عشان أنت في الأول.. مسيرك هتزهقي..

وكانت، رغم كل شيء، تفهم قصده.. تفهم ما خلف تلك الكلمات.. ببساطة، وجعه أعمق من أن يثق في أي شيء.. لا يصدق للحظة أن تكتمل الأمور بتلك السعادة.. لابد من «خازوق» ما.. لابد من وجع ما..

«بس هي بدأت تتخنق فعلا»..

* * *

قالها (أسامة)، وهو يلتفت لهم قائلا:

- اتخنقت من أنها كل شوية لازم تثبت له قد ايه هي بتحبه.. اتخنقت من أن بعد كل اللي هي بتعمله ده هو لسة مقتنع أنها هتسيبه ومش بتحبه أو هتزهق بسرعة.. وعشان هو معودها على الصراحة، بيقول لها على كل حاجة.. فهي بدأت تصدق فعلا أن مافيش أمل.. وأنها عمرها ما هتعرف تسعده.. واتخنقت.. بجد..

أومأ الطلاب برأسهم بمعنى «عندها حق»، ليرفع (أسامة) إصبعه الثاني قائلا:

- هنا يظهر تاني إحساس في المرحلة الخامسة.. عدم تقدير حجم المشكلة في الطرف التاني.. أو عدم التقدير في العموم..

وأشار للطلاب، مستمتعا بتجربته الجديدة:

- مين فيكم هنا يقدر يلاقي شبه حصل له في حياته..

رفعت طالبة شابة - في الثلاثينات ومحجبة - يدها في تردد، فأشار لها (أسامة)، لتقول:

- اسمي (نورا).. متزوجة.. أنا اتجوزت عن قصة حب استمرت سبع سنين مع ابن عمتي.. طول ماإحنا كنا بنحب بعض قوي.. كل وقته كان لِيَّ.. وحارب أهله وأهلي عشان نكمل مع بعض.. من أول ما اتخطبنا قال لي أنه لازم يشتغل في مكانين عشان يعرف يجيب فلوس تخلينا عايشين مرتاحين.. بيشتغل من الساعة ١٢ بليل لحد الساعة ٩ الصبح.. ومن ٩ ونص الصبح لحد الساعة خامسة.. فلازم أستحمله، لأنه تقريبا مش هيبقى موجود.. في الأول كنت فرحانة جدا أنه بيعمل كل ده علشاني.. بس بعد كده اتخنقت.. هو مش موجود خالص فعلا.. بدأ يتعصب على كل حاجة.. مش عاوزني أنزل ولا أقابل اصحابي ولا حتى أتكلم في التليفون.. خلاني أقطع علاقتي بأي راجل حتى قرايبي.. كل ما أقول له واحشني وعاوزاك معايا شوية يتعصب ويقول لي انا بعمل كل ده علشاننا.. فاتخنقت..

وصمتت لتأخذ نفسها، وقالت مكملة:

- بعد كده اتجوزنا.. بس هو مابقاش نفس البني آدم.. وانا مابقتش عارفاه.. بس خلاص.. هو جوزي وأمري إلى الله.. عايشة معاه على ذكرى السبع سنين حب.. بس كده..

ارتفعت أيادٍ كثيرة تلك المرة، فقال (أسامة) مبتسما من حماسهم:

- ماتستعجلوش.. قيسوا كل اللي قالته (نورا) على اللي حصل مع (أ) و(رؤى)، هتلاقوا ان التشابه في الإحساسين متماثل.. الامتلاك.. وعدم التقدير.. مهما اختلفت القصص..

ثم أخذ نفسا عميقا تلك المرة، وهو يقول:

ـ نخش بقى في الإحساسين اللي بعديهم.. (ب) و(دنيا)..

ونظر لمجموعة (ب) قائلا:

ـ مين فيكم لقى نفسه في اللي حصل مع (ب)..

وفي تلك المرة، ارتفعت أيادٍ كثيرة أيضا..

* * *

قال طالب ـ في أواخر العشرينات، أصلع قليلا:

ـ الضعف..

هز (أسامة) رأسه بمعنى (مش بطّال) وأشار له أن يكمل، فقال الطالب:

ـ اسمي (أحمد).. سينجل..

ثم ضحك ضحكة خفيفة وهو يقول:

ـ ماعرفش اسمها ايه بالعربي.. (لوحدي) مثلا؟

ضحك من في المحاضرة، فأشار له (أسامة) أن يكمل ثانية، فقال (أحمد) بتردد:

ـ أنا طول عمري شاب عايش حياته «مقضّيها».. ارتبطت ببنات كتير وزي الفل.. لحد ما ارتبطت بـ(أسماء).. حبيتها قوي بجد، وكان نفسي اثبت لها ده بكل الطرق.. المهم يعني هي كانت متدلعة شوية ومستواها كويس.. اتقدمت ليها وأهلها وافقوا وقشطة يعني وكله تمام.. لحد ما كنت مسافر مع أهلي وعملنا حادثة ووالدي توفى..

صعدت همهمات بمعنى (البقاء لله)، فابتسم هو ابتسامة حزينة مكملا:

ـ عادي يعني بتحصل.. المهم.. هي المفروض كانت خطيبتي.. انا بقيت كئيب فشخ.. مش طايق نفسي.. وكل اللي محتاجه منها أنها تفضل جنبي.. الواحد مننا لو أبوه مات بيحس أن ضهره انكسر فعلا.. ان سنده الوحيد في الدنيا راح.. فكنت محتاجها تسمعني قوي.. لما نخرج خروجة

تحضنني لو عيطت.. تستحملني يعني من الآخر.. لحد ما ربنا يكرم وأبقى كويس.. أول ما عدا أربعين أبويا.. سابتلي الدبلة وقالت لي إنها كانت فكراني «أرجل» من كده.. وهي مش شايفة مستقبلها مع واحد ضعيف.. وان هي لسة صغيرة على الكآبة دي.. وانها كانت بتحضنني ومستحملاني الأيام اللي فاتت عشان أنا كنت صعبان عليها.. بس كده..

لأول مرة شعر (أسامة) بتأثر، جعله يتنحنح مع همهمات الطلاب (ليه كده) و(ازاي تعمل كده)، فقال مقاطعا إياهم:

- بلاش نظلم البنت..

التفتوا إليه جميعا باستنكار، فقال هو مستعيدا شخصية المحاضر:

- اللي حصل لـ(أحمد) يشبه كتير اللي حصل مع (ب)..

وبدأ يحكي لكل من لم يقرأ (ب) بعد:

- (ب) كان داخل يعمل عملية جراحية لاستئصال ورم حميد، بيضغط على الأعصاب في مستوى الفقرة الرابعة والخامسة.. فالدكتور أصاب الأعصاب الطرفية.. مما أدى لشلل في عضلات الرجل.. حد فيكم فهم حاجة؟

أومأوا برؤوسهم أن لا، فقال هو مبتسما:

- مش مهم تفهموا الأمور الطبية.. المهم.. أن (ب) عرف أن الوجع هيفضل مستمر طول عمره.. بسبب غلطة دكتور.. اه هي كانت من المخاطر المهمة جدا في العملية.. وهو كان عارف أنها ممكن تحصل.. بس اشمعنى هو؟..

ورجع للورق، وبدأ يقرأ بصوت عال:

* * *

كان الألم لا يطاق..

بدأ مفعول البنج في الذهاب، فشعر بآلام لا توصف في مكان الجراحة وفي قدمه..

اعتصر الهاتف المحمول على أذنه، وقال لها:

ـ مش قادر استحمل الوجع يا (دنيا).. أنا عاوز أموت..

بدأت دموعه تهبط في غزارة، فقالت (دنيا) بدموعها:

ـ معلش.. تعالى في حضني..

تأوه أكثر، فشعرت بقلبها يتمزق وهي تسمع صوت بكائه المكتوم، ولا تدري ماذا تفعل. أرادت أن تكلم أي من أهله، لكنها تعرف أن والديه ماتا في حادثة طائرة بشعة وهو في الحادية عشر من العمر، وهو يعيش الآن بالتعويض، ومن شركات التأمين، وانعزل تماما عن كل شيء إلا المدرسة..

نظرت لأمها، التي دخلت غرفتها الآن تحدق فيها بصرامة، وتشير أن الساعة الآن الثانية صباحا، في حين قال (ب) صارخا:

ـ كفاية وجع بقى..

الألم كان رهيبا، حتى مع جرعة المستشفيات الرسمية من المسكنات، التي تهبط من ذلك السائل المعلق جانبه..

لم تستطع النطق أمام نظرة أمها الصارمة، ثم لم تدر ماذا تفعل، فضغطت على زر إنهاء المكالمة، لتقطع صرخة عالية صدرت من سماعة الهاتف، ودموعها تزداد، ونظرت لأمها، التي أشارت لها أن تعطيها الهاتف.. وبدون نقاش، ضغطت على زر الرفض، لتقطع رنين الهاتف عندما كلمها (ب) ثانية، ثم أغلقت الهاتف تماما، وناولته لأمها..

وقلبها يتقطع ألما عليه..

«بس (ب) عمره ما كان هيفهم»..

* * *

قالها (أسامة)، قاطعا قراءته بأسلوب بدءوا يكرهونه منه، ليكمل هو:

- دي بداية المرحلة الخامسة بالنسبة لـ(ب).. وجع رهيب عمره ما شافه ولا حسه قبل كده.. مافيش لا أهل ولا قرايب.. وكل اللي محتاجه حد يشاركه الوجع ده.. حد يبقى جنبه أو معاه..

وأخذ نفسه، ثم أكمل:

- لو راجعنا قصة (ب) من الأول هنلاقي أنه واحد كان بيتحرك كتير قوي.. حريف كورة.. بيتفلسف شوية.. من الآخر شاب عادي جدا في عمر المراهقة.. شايف انه عرف الدنيا كلها ومافيش جديد.. فجأة لقى نفسه بيواجه تجربة جديدة وورم وعملية.. وانصاب في العملية دي بحاجة هتفضل مأثرة عليه عمره كله.. ومافيش حد هو سامح له بدخول المغارة دي غير البنت اللي حبها.. (دنيا)..

ورفع أصبعه الثالث، مكملا في العد:

- عشان نيجي للإحساس اللي (أحمد) قال عليه.. الضعف.. بس هاصححه أنا للكلمة الأدق.. «الاحتياج»..

وأكمل:

- (ب) كان محتاج (دنيا).. مش محتاج حبها.. أكتر حاجة بتهدد الحب أو بتقلله.. لما الحب يتحول لاحتياج مطلق.. بس البشر عشان أضعف من أنهم يعترفوا بده.. بيسموه حب.. (ب) كان بيمر بضغوط كتير قوي خليته محتاج حد معاه.. ماينفعش يبقى لوحده.. فحب (دنيا) قوي.. وشاف فيها المستقبل المريح.. اللي فيه النص التاني اللي ممكن يتسند عليه.. عشان كده لما نكمل قراءة في المرحلة الخامسة، هنفهم ليه فضل يعامل (دنيا) بأسلوب وحش قوي.. ليه قلب عليها ١٨٠ درجة كده.. هو شاف أنها ماقدّرتش احتياجه، وفي نفس الوقت شاف نفسه ضعيف قوي لأنه بكى قدامها..

صورته اللي صورها لنفسه أنه راجل وهيستحمل، اتهزت قدام نفسه في عينيها ونظرتها ليه..

وأكمل وهو ينظر لهم:

- بس ايه رأيكم لو بصينا للدنيا من عين (دنيا) شوية؟..

وعاد بسرعة للورق الملقى على المكتب، وهو يقرأ بصوت عالٍ:

* * *

ومر أسبوع، ومازال الألم لا يطاق..

هل شعر بفرق عندما أخبرته (دنيا) أن أمها قد علمت بكل شيء، ومن لحظتها وهم يعاملونها في البيت معاملة سيئة، وأنها منذ ذلك اليوم الهاتف ليس معها، وأصبحت تزوره كل ثلاثة أيام مرة؛ إن استطاعت؟..

شيء ما انكسر فيه، ولا يدري ما هو تحديدا..

(سارة) و(عبد الحميد) هم من ظلوا بجانبه في المستشفى، يطمئنان عليه ليلا نهارا.. كان لابد له أن يظل أسبوعين تحت الملاحظة، ليتأكدوا من مدى تأثر الأعصاب الطرفية بما حدث.. أو بمعنى أدق.. أن يتأكدوا إن كانت هناك خسارة أكبر..

«- نصيحتي ليك.. الحق نفسك قبل ما الوجع يغيَّرك.. لأنك عمرك ما هتعرف ترجع تاني..»

الألم يغير كل شيء حقا..

هو يحب (دنيا)، لكنها لن تستوعب أبدا ما يمر به.. شيء ما، بعد كل هذا الوجع، جعلها أكثر سطحية مما كان يتوقع.. ففي النهاية.. هي فتاة لا تزيد عن سبعة عشر عاما..

«لا تزيد عن سبعة عشر عاما»

* * *

كررها (أسامة) بصوت أعلى، فانتبه إليه الطلاب، ليكمل هو:

ـ (دنيا) دي بنت عندها ١٧ سنة بس.. كل أحلامها أنها تجيب مجموع كويس تخش بيه جامعة محترمة عشان تشتغل شغلانة كويسة.. بنوتة نفسها تحب وتتحب.. شافت ولد دمه خفيف وبيمر بظروف صعبة فحبته قوي.. بس فجأة اكتشفت انها ـ وهي سنها صغير كده ـ بقى مطلوب منها أنها تبقى أم وأخت وحبيبة لواحد مريض بيتوجع كل يوم وشايل كل ده عليها.. مطلوب منها أنها تضحك له وتزوره وتكلمه كل شوية وفي نفس الوقت تذاكر وتروح دروسها وو و..

وارتفع إصبعه الرابع مكملا العد قائلا:

ـ عشان نوصل للإحساس الرابع.. إحساس مشترك قوي بين كل الناس ومكرر.. «عبء المسئولية».. أو بمعنى أدق «الحِمل»..

ارتفعت أيادٍ كثيرة تلك المرة، فأشار لهم (أسامة) أن ينتظروا وهو يكمل:

ـ مش محتاج أسمع قصصكم في دي.. البنت البريئة في أول أيام جوازها لما تكتشف أن حمل البيت كله عليها.. الشاب اللي كان فاكر أنه هيقدر يتجوز ويكتشف أن في حمل فلوس بيت كامل على كتافه.. الزوجة المخلصة اللي جوزها عمل حادثة واتشل مثلا.. الأطفال لما بييجوا بتعبهم ومصاريفهم.. الحمل ده إحساس تقيل قوي.. بيتقّل في الروح وبيتقّل في الحب.. كل واحد بيبص للطرف التاني على أنه مش فاهمه.. كل واحد مستني من التاني أنه يخفف الحمل، مع ان كل واحد منهم فيه اللي مكفيه.. المرحلة الخامسة هي ـ وخدوا بالكم من الكلمة دي كويس قوي ـ بداية الإحساس بكل ده..

قالت فتاة مقاطعة دون أن تدري:

ـ المرحلة الخامسة دي كئيبة قوي..

ضحك الطلاب في هدوء، في حين قال (أسامة) بابتسامة جانبية:

ـ المرحلة الخامسة زي ماانتم قريتوا مرحلة كبيرة قوي.. وممكن تحصل

في أيام، وممكن تحصل في شهور أو سنين.. وهي دي صعوبتها.. عاملة زي السرطان كده.. بيقعد يتسلل جوة الواحد سنين.. ومابيعلنش عن نفسه غير في وقت حرج قوي.. وبيكون الشفاء منه من المستحيلات..

أومأوا برؤوسهم أن نعم، فتنحنح هو قائلا:

ـ ندخل على الإحساسين اللي بعديهم..

ونظر لهم مشيرا بسباباته:

ـ مين فيكم حس أن فيه من (ج) و(علا)؟..

وفي تلك المرة، ارتفعت أيادي كل من كان يقرأ مجموعة (ج).. !

* * *

ضحك (أسامة) في سعادة، من رؤية تلك الأيادي المرتفعة، وقال:

ـ طبعا كلكم لاقيتوا نفسكم في القصة دي..

ضحكوا في بساطة، فأشار (أسامة) لرجل أربعيني قائلا في دهشة:

ـ حتى أنت؟..

قال الرجل، وكان ذا شارب خفيف ولحية قصيرة، مما تسمى بالـ(دوجلاس):

ـ أنا اسمي (علي).. متجوز.. وباعشق مراتي بطريقة غير طبيعية.. اه طبعا بعد الجواز المشاعر قلّت كتير.. لمعظم الأسباب اللي انت قلتها من شوية.. بس تفضل المشكلة الرئيسية.. الغيرة.. مابرضاش أنها تكلم حد.. رغم أن هي أصلا متدينة ومحترمة بطبعها.. خليتها تتنقب عشان مابستحملش حد يشوفها غيري.. مابخليهاش ترد على التليفون الأرضي عشان صوتها مايعجبش حد غيري.. وهي راضية وقنوعة الصراحة.. بس رضاها وقناعتها دول بيخلوني أحس أنها مكتفية بحد تاني.. أصل ماحدش يستحمل اللي بعمله فيها!..

قال (أسامة) معقبا:

- اتنين مش بيفترقوا.. توأم متماثل.. الغيرة والشك.. أنا شخصيا باحسبهم إحساس واحد!..

رفع أحد الطلاب يديه وسأل:

- طب ايه اللي يفرق الغيرة عن الامتلاك؟.. انت قلت انك هتوضح الفرق..

شعر فجأة أن الموضوع تحول إلى برنامج تعليمي ممل، بدأ الموضوع يعود إلى المحاضرات الأولى.. كانت التجربة في البداية ممتعة، لكن هل ستظل هكذا؟..

قال، وهو يقرر داخله أنها ستكون آخر إجابة في هذا الموضوع:

- الغيرة أساسها عدم ثقة في النفس.. الولد أو البنت بيبقوا خايفين أن الطرف الأخر لما يمر بتجارب تانية ويشوف ناس تانية ويكلمهم ويتعامل معاهم.. ممكن يهجروا أو يخونوا بعد كده.. وعشان كده بتبقى خناقة لرب السما لما يحصل حاجة زي كده من كل واحد.. اما الامتلاك، فهو انك تطلب من حد أنك تبقى محور اهتمام حياته كلها.. ان ربنا فوق.. وانت تحت.. كل الكلام والتصرفات والأسلوب والضحك والزعل والحنية وحتى الغضب يبقوا عشانك أنت بس.. فرق شاسع بين الاتنين.. ومافيش واحد إلا وفيه مزيج من الاتنين..

وقال بسرعة، حتى لا يسأل أحد آخر عن شيء:

- في بداية المرحلة الخامسة، بالنسبة لـ(علا) و(ج).. انه خلاص.. قرب يتقدم لها.. وهي كلمت أهلها عليه.. وحاسة ان حياتها مكتملة.. ودلع وحنية وفرحة بجد.. هنا يبدأ (ج) يظهر أول عيوبه.. الغيرة.. والشك.. في الأول المواضيع بتبقى بدلع وبخفة دم.. انا بغير عليكِ من الهوا الطاير.. وهي تضحك ومبسوطة.. عملوا الحركة اللطيفة بتاعة ان كل واحد ياخد

كلمة سر التاني.. وكل ده عادي..

وصمت لحظات ليكمل:

ـ لحد ما اتحطوا في موقف جد.. انها خرجت مع الشلّة بتاعتهم، وكان (احمد) موجود هناك.. ماتنسوش ان احنا بنتكلم في شهور عدت عليهم في سعادة صافية.. سألته اذا كانت تروح ولا لأ قال لها مافيش مانع.. عشان ترجع على أكبر خناقة حصلت لها في حياتها.. هاقول لكم حتة منها..

وبدأ يقرأ..

* * *

أمسكت الهاتف بعصبية وهي تقول:

ـ انت متعصب عليَّ ليه؟.. مانت كنت عارف أني رايحة وممكن هو يكون هناك..

ليرد عليها (ج) بصوت هادئ:

ـ ممكن يكون هناك.. جيت على نفسي وقلت لك مافيش مشاكل وقلت انك هاتقدري ده.. لكن تفضلوا تتكلموا طول القاعدة وهزار وضحك.. وفي الاخر يوصلك بعربيته لحد البيت.. ليه؟

رغم هدوئه هذا، فهي تعرف أن هدوئه لا يعني إلا أنه يفور من داخله، لتقول هي بعصبية في غير فهم:

ـ وانت ايه اللي يضايقك في حاجة زي كده؟ دا انت اللي خليتني اكتشف اني مابحبوش ولا بطيقه.. اول ما اشوفه يعني هارجعله مثلا واخونك؟..

عصبيتها وصراخها جعلاه يرد أقسى رد تتخيله، فبصوت بارد وهادئ قال:

ـ وأيه المشكلة.. ما انت خنتيه معايا.. وسبتيه..

لتتسع عيناها، في صدمة لم تشعر بها في حياتها، وقالت بصوت خافت:

ـ انت قلت لي إنك عمرك ما شفتني خاينة!..

قال هو بنفس الصوت البارد:

ـ وماكدبتش.. أنا عمري ما شفتك خاينة.. بس في نفس الوقت عمري ما هاثق في انك مش هتخونيني بعد كده!..

«أنا كنت متأكدة أن (ج) ده مش كويس»

* * *

صاحت بها إحدى الطالبات في حماس، مقاطعة (أسامة)، ليبتسم هو، ثم نظر لهم قائلا:

ـ وبتستمر المرحلة بين خناقات بتزيد بينهم، بس دايما بيحلوها.. اذا كان بنقاش أو أسف.. لحد ماوصلنا لنقطة أنه قابل باباها.. والراجل بيشوفه بني آدم كويس فعلا.. (ج) معاه شقته، معاه فلوسه، وعربيته، بس ناقصة حاجة مهمة جدا.. الشغل اللي بجد.. والد (علا) لما عرف أنه رسام بس.. استهزأ بالموضوع شوية.. وعرض عليه كذا فرصة عمل كويسة في أماكن ناس يعرفهم، زي تصميم الديكورات وحاجات زي كده.. عشان يضمن دخل ثابت لبنته.. المهم.. (ج) بيوافق بعد زن كتير من (علا).. هو بيحبها فعلا.. وعاوز يعيشها في مستقبل أحسن.. فبيقبل بشغلانة مرتبها مش بطّال.. بس كعادة كل الفنانين الحالمين زيه.. كان مش واخد شغله جد.. شايف أنه وسيلة ماينفعش يبقى أسلوب حياة، أو ان الشغل ماينفعش ياخد أكتر من أهميته ووقته..

وصمت قليلا، لتأتي اللحظة التي كانوا ينتظرونها، عندما رفع إصبعه السادس وهو يقول:

ـ (علا) هنا بتبدأ تحس أنه متدلع شوية.. أو أنه لازم ييجي على نفسه شوية.. فبتبدأ واحدة واحدة تكره موهبته بعد ماكانت بتبهرها.. هتبقى عاوزة تغير من صفاته الأساسية زي تريقته وهزاره ولا مبالاته.. عاوزاه يبقى جد زي باباها مثلا عشان تحس معاه بأمان.. وده ينقلنا للإحساس السادس بعد الغيرة..

وكعادته صمت، وهو يرفع ستة أصابع مكملا:

ـ عدم الرضا.. أو بمعنى أدق.. الرغبة في التغيير.. أو بمعنى أدق وأدق.. التطبيع..

ليتجه للورق، كعادته في تلك المرحلة، ويقرأ بصوت عال:

* * *

رغم كل شيء، مازالت تحبه..

ورغم كل شيء، مازال يراها «كل شيء»..

كانت لا تشعر بأي نقص في الاهتمام منه بسبب العمل، كما هي العادة، ولكن تلك المعلومة لم تكن مفرحة بالنسبة لها، لأنها تعني ببساطة أنه لا يعمل بجدية!..

يسجل حضور، يجلس قليلا محاولا الهروب من أي تكليف من المدير، ثم ينصرف مسرعا في موعد الانصراف..

تحدثه، فيرد عليها بفلسفته، التي بدأت تكرهها الآن:

ـ الشغل ده بنشتغله عشان نجيب فلوس عشان ننبسط.. انا معايا فلوس.. ومبسوط.. انكد على نفسي بالشغل ليه؟

تعرف أن منطقه صحيح لكن ملتوٍ.. العمل ليس مجرد نقود.. العمل مسئولية.. ارتقاء في الروح البشرية ليتعلم كيف يلتزم ويضغط على نفسه، كي يصبح رجلًا، قالت له ذلك، فقال بسفسطائيته، التي كانت فيها مضى

سحره، هادئا:

- وهو تسجيلي غياب وحضور وتصميم شقة وفيللا لواحد تاني مستخسر حتى يحلم بشقته.. ده اللي هيخليني راجل؟..

ثم يقول بعد تنهيدة، كعادته في إثبات وجهة نظر ما:

- م الآخر يا (علا).. انا بعد اللي شفته في حياتي مش مستعد اجي على نفسي عشان أعمل حاجة أنا مش عاوزها.. الدنيا دي ضيقة وصغيرة وتخنق.. مش هاقدر أجبر نفسي على حاجة أنا مش حاببها.. انا أجبرت نفسي على حاجات كتير قوي..

قالت صارخة في غيظ:

- أنت كل شوية تقول لي «بعد اللي شفته» و «بعد اللي جرالي».. ومش بترضى تقول ايه اللي حصلك.. أنا قدامك كتاب مفتوح وماعرفش أي حاجة عن ماضيك.. وكل ما أقول لك «كل الرجالة بيقولوا كده».. تقولي بكرة تعرفي.. ناوي تعرّفني امتى؟

ليقول لها برومانسية تجعلها تنسى نفسها في ثوان:

- أول يوم في شهر العسل..

لتبتسم هي رغما عنها، ثم تتذكر أنها غاضبة، فتقول:

- بس اوعدني انك تحاول تسيب الرسم شوية.. وتركز موهبتك دي في التصميات.. ماشي؟

ليقول هو بعد صمت:

- حاضر.. هاحاو.. الخ الخ الخ..

* * *

والتفت إليهم (أسامة) قائلا:

ـ معلش طولت عليكم في قراية الحتة دي.. بس أنا شخصيا بحب (ج) جدا..

جاملوه بابتسامة، فقال هو:

ـ كل واحد أو واحدة بعد الجواز، أو حتى في خلال العلاقة أو الخطوبة.. بيحاولوا يخلّوا الطرف التاني يفكر زيهم.. يتعود على طريقتهم في الحياة.. يتعود على أسلوب تربيتهم وطريقة لبسهم وأكلهم ووو.. حتى في جملة شهيرة الناس كلها بتقولها «مسيره يعقل بعد الجواز.. أو مسيرها تتغير بعد الجواز.. قليل قوي فينا اللي بيرضى بالطرف التاني زي ماهو.. كل واحد بيحاول يطبّع التاني بصفاته.. والمشكلة ان التاني لو قاوح يبقى هو مش فاهمنا، أو مش عاوز يبقى معانا.. بل وأحيانا برضه الموضوع بيقلب بالحرب.. لو مابقتش زينا.. يبقى مش هنكمل مع بعض.. أخطر وأسوأ المشاعر اللي بتهدد أي علاقة هي دي.. لأننا بطبعنا، أنانيين.. وبنحب كل حاجة تمشي زي ماإحنا عاوزين..

وأخذ نفسا عميقا، وهو ينظر إليهم قائلا:

ـ أخيرا بقى.. مجموعة (د)..

ولدهشته الشديدة، لم يرفع أحد يده إلا سيدة كبيرة، فنظر لها لحظات، وقال:

ـ مع إحباطي الشديد.. بس اتفضلي..

* * *

قالت السيدة بهدوء:

ـ انا اسمي (نجوى).. بس أنا مش لاقية أي ربط بين قصة (د) وبقية القصص.. أيه فايدة أن احنا ندرسها أو نقراها؟.. هو حب الطفلة، بعد كده أمه انتحرت.. بداية المرحلة الخامسة أنه عدى عليه سنتين وبقى عنده

عشر سنين.. وطول المرحلة الخامسة هو قاعد لواحده.. باباه جاب أخ وأخت ليه، لحد ما (مروة) ـ اللي كبرت هي كمان ـ زهقت منه ومن سكوته وقعدته لواحدة.. فضلت تلعب مع اصحاب تانيين في المدرسة وهو يعيط أنها سابته.. بعد كده قالت له إنها مش عاوزة تعرفه تاني.. وفضل هو برضه قاعد لوحده بيعيط..

ثم استطردت:

ـ أزاي عاوز تقنعني أن ولد صغير مر بمراحل الهيبتا؟.. هو مثلا مش فاهم ولا إحساس من اللي احنا قلناهم طول المرحلة اللي فاتت.. وكمان البنت خلاص سابته.. معنى كده أن مافيش جديد لقصته ووصلنا بيه لحد النهاية..

تأملهم (أسامة) لحظات، ثم قال بإحباط:

ـ يعني كلكم زهقتم من (د)؟..

أومأوا برؤوسهم أن نعم، وعقّب طالب آخر:

ـ احنا بس مش فاهمينه..

تأملهم (أسامة) لحظات، وابتسامة خبث كبيرة تتسع داخله، ثم قال دون أن يظهر شيء عليه:

ـ ماشي.. مع أنها هتبقى أول مرة تحصل.. بس (د) كده كده قصته انتهت في المرحلة الخامسة فعلا.. بس تحت اسم إحساس برضه، مهم جدا في المرحلة الخامسة..

وأكمل رافعا سبع أصابع:

ـ الملل..

وأكمل، وهو يدور حول المكتب، وقد قرر ألا يقرأ شيئا تلك المرة:

ـ من غير ما نخش في تفاصيل.. هو الملل.. كل واحد بيبقى داخل

العلاقة مهتم قوي باللي جي.. أول مابيوصل لهدفه.. ويلاقي أن كل اللي كان مستنيه.. طلع «عادي» شوية.. أو طلع مش بالإبهار اللي هو عاوزه.. بيملّ.. بيزهق.. والملل إحساس قاتل بجد لو دخل جوة العلاقة.. لما كل الكروت تتحرق بدري.. وتتحرق بأسلوب غلط.. ساعتها مابيبقاش فيه جديد.. مهما عملتم حاجات كتير مختلفة عشان خلاص.. كل المشاعر اتعاشت وكل حاجة اتعرفت.. ف اللي حصل مع (د) و(مروة) هو ملل غير طبيعي.. البنت مش لاقية الولد اللي يلعب معاها.. وهو مش لاقي حد يفهمه.. فهي زهقت وهو زهق.. بس اتأثر قوي انها سابته، لأنها الوحيدة اللي كان عارف يسكت قدامها.. زي مابيقولوا في قصص الأطفال.. الوحيدة اللي من الطيبين اللي كانت فاضلة.. وهي سابته في وسط الأشرار كلهم.. لوحده..

ثم قال بعد فترة صمت، معيدا إياهم لموضوع المحاضرة ككل:

ـ أنا عارف كويس قوي ان المرحلة الخامسة كانت مفاجأة.. واتصدمتم في بعض الشخصيات.. بس الصدمة دي مقصودة.. لأن نقط الضعف أو العيوب عادة بتبقى آخر حاجة تتوقعها من الشخص اللي قدامك.. مش بتستغربوا قوي لما ييجي ولد يقول، بعد قصة حب خمس سنين.. انه اكتشف أنها كزوجة كسولة جدا ومش عارفة تشيل المسئولية؟.. الناس بتبقى بتضرب كف على كف.. مين يصدق ان (أ) اللي كان نفسه يحس.. بقى شخص جبان قوي كده وخايف الإحساس الروعة ده يروح منه، فمش عارف يعيشه؟.. مين يصدق أن (ب) اللي حب (دنيا) قوي عرف يتغير عليها من وجعه؟.. ومين كان يتخيل ان (ج) اللي كان واثق من نفسه قوي كده وفاهم كل حاجة، يطلع فيه انفصام الشخصية بتاع معظم الرجالة الشرقية، ويغير على (علا) كده؟.. بس هي دي الفكرة.. وهو ده المراد.. اللي بيحصل.. عكس اللي كل الناس بيتوقعوه تماما.. هي دي القاعدة..

العيوب هي ـ عادة ـ أسوأ نقاط الضعف اللي بيفضل البني آدم طول عمره بيحارب عشان يثبت أنها مش فيه!..

ثم ذهب للسبورة بحماس، وهو يرسم تحت كلمة المرحلة الخامسة سبعة أسهم.. وهو يقول:

ـ يبقى المرحلة الخامسة هي ظهور أسوأ مشاعر في كل علاقة.. قولوهم معايا..

وكتب ما يقولونه كلهم:

الامتلاك.. عدم التقدير.. الاحتياج.. الجِمل.. الغيرة والشك.. التطبيع.. الملل..

والتفت إليهم غامزا بعينه وهو يقول:

ـ مش قلت لكم رقم سبعة ده سحري!..

وأكمل ناظرا للسبورة والأسهم المرسومة التي يخرج منها كل إحساس، وقال:

ـ دول هم السبع مشاعر اللي ممكن يهدُّوا أي علاقة مرت بينا.. في اللي بيواجههم كلهم.. وفي اللي بيقابل شوية منهم بس مش بيستحمل.. مشاعر بتهد مش بتبني..

والتفت إليهم ثانية، والحماس يتطاير من كلماته:

ـ بس أحلى حاجة ان زي ما في سبع مشاعر بتهد، في خمس حلول، بس.. اللي يعرف يعملهم صح.. يعدي المرحلة الخامسة بكل عيوبها..

بدأ الأمل يطفو على عيون الطلاب، فابتسم (أسامة) وهو يكتب على السبورة:

ـ المرحلة السادسة..

* * *

٦ـ القرار

كل ثانية يوضع أمامك اختيار بسيط قد يجعل الحياة كلها مختلفة..

وكل ثانية تختار أن تؤجل القرار خوفا، فتظل كما أنت..

كيف أصبحت بهذا الضعف؟..

قالها (أ) لنفسه، وهو يجلس في تلك الشقة، التي اختلفت معالمها تماما..

في أحد أفلام الرسوم المتحركة الذي لا يذكره، كانت هناك تلك الأميرة، التي تترك خلفها دائما ذلك الضوء الأبيض الساحر، الذي يجعل كل من يراه في حالة انتشاء..

يرى (رؤى) في حياته تفعل نفس الشيء.. كلما تفعل أي شيء، تترك ذلك الضي من السعادة..

لكنه لا يصدقه..

لا يصدقها..

هو شخص اعتاد تماما أن يقتل كل ما بداخله.. أن يخلق تلك الفجوة الصماء، تمتص أي إحساس كان.. حتى أصبحت تلك الفجوة أسلوب حياة.. تعلّم معها معنى «الراحة».. إنسان لا يشعر هو بالتأكيد إنسان لا يتألم..

منذ أن ولد وهو يعلم أن الله خلق الدنيا ناقصة.. خلق البشر ناقصين.. عاش عمره كله يتعلم كيف يكون ناقصا.. وكعادة البشر كلهم، حاول أن يداري نقصه بأن يكتمل في شيء آخر.. صدّق للحظات أنه شاب مختلف، وأنه سيجعل الدنيا تختلف بعده.. وعندما وجد أخيرا من تقبل به بجنونه هذا، ووجد من تحبه وترغب في الزواج منه، وصدّق أن الحياة بدأت

تبتسم.. ماتت طفلته، بعد أن مات حب زوجته له، عندما عرفته حقا.. وأدركت أن جنونه لا يحتمل..

جلس منتظرا (رؤى) لتعود من عملها.. تذكر ابتسامتها البلهاء، عندما اكتشفا بعد ليلة زواجهما أن لكل منهما وظيفة مثل باقي البشر ا..

لكنها تأخرت..

حاول أن يغمض عينيه، كي يسكت ذلك الهاجس المريض أنها لن تعود.. أنها هربت من كثرة ضغطه عليها.. ذلك الألم الخفي لطفل ينتظر أمه، التي تركته في أول يوم له في الحضانة.. ما بين أمل رجوعها وخوف قاتل بأنها ستتركه في تلك الحضانة إلى الأبد.. شعور سخيف..

نهض ببطء، وذهب للكاسيت الكبير في غرفة المعيشة، ثم ضغط زر التشغيل وهو يرفع الصوت لأقصى درجة..

لتتصاعد تلك النغمات الحانية..

تلك النغمات التي كانت ترقص عليها في السطح، وحدها..

كيف، رغم مرور بضعة أشهر، إلا أنك تشعر أنها ذكرى بعيدة؟

ابتسم متذكرا ذلك اليوم المجنون، يوم بدأه بالموت، وأنهاه بالحياة..

حياتها..

كيف عرفت أن تنتزعه من كل آلامه في تلك الليلة.. وكيف عرفت أن تعيد كل الآلام في أشهر قليلة؟..

كيف تفعل كل هذا بشخص مر عليه كل ما مر؟!..

تعوَّد أن كل ما يعشقه ويريده ينتهي بشعورين لا ثالث لهما..

الندم.. والوحدة..

إما يحرّم من قبل كل من يعرفه.. إما أن يؤخذ منه بلا ذنب.. لأنها في

العادة.. تعتمد على من ذهبوا وتركوه..

فكيف يصدق للحظة، ويقتنع أنها لن تذهب بعيدا؟..

هز رأسه بقوة، وهو يقول لنفسه بغضب أن يكف عن هذا..

لقد بدأت تختنق..

لكنها تأخرت!!!..

ضرب جرس هاتفه المحمول في تلك اللحظة، ليجد اسمها المحبب لقلبه يتألق على الهاتف..

«حياة»..

رد عليها بلهفة قائلا:

ـ (رؤى).. أنت فين؟..

ضايقة صوت الهواء الشديد حولها، لكنه سمعها تقول بحنانها:

ـ اطلع البلكونة..

عقد حاجبيه متسائلا، وهو يذهب للشرفة، ويفتح بابها في سرعة وهو يقول:

ـ انت تحت ولا أيه؟..

ضحكت في سعادة، وقالت مازحة:

ـ مش قلتلك ١٠٠ مرة ماتطلعش البلكونة وانت مش لابس حاجة من فوق؟.. هامنع الجيران من أنهم يعاكسوك ازاي دلوقتي؟.. وكمان الجو ساقعة عليك..

ابتسم وهو ينظر للشارع يبحث عنها، ويرد عليها:

ـ يا بنتي انا عمري ما همتني الحاجات دي.. انت فين؟

قالت بحنان:

ـ ازاي بتقول عليَّ ملاكك وبتدَّور عليّ تحت؟..

رفع عينيه في سرعة لذلك السطح، ليجدها واقفة هناك، تستند على السور بيديها وتلوح له، فضحك وجهه كله، لتقول هي:

ـ تعالى.. عاوزة أقول لك كلمتين..

وقالت بجدية:

ـ بس البس تي شيرت.. مش عاوزين نتمسك آداب..

ضحك من قلبه، وذهب مسرعا ليرتدي شيئا..

ذاهبا لها.. للمكان الذي رآها لأول مرة فيه..

للمكان الذي بدأت فيه حياته من جديد..

* * *

ذهب (د)، لأول مرة ناويا أن يفعل شيئا ما..

أن يفهم..

* * *

ارتفعت أيادٍ كثيرة في المحاضرة، فنظر لهم (أسامة) باسما وقال:

ـ مشكلة السلطة في مصر أنها بتعوِّد الواحد على عدم الديموقراطية.. أنا الدكتور هنا.. وأكيد في هدف في قصته، حتى لو أنتم لسة ماعرفتهوش.. (د) لسة ماخلصش.. انا كنت بهاودكم بس..

هبطت أيادي الطلاب في حنق، فأكمل (أسامة) باسما:

ـ بس أنا خليته بدري شوية.. قلت يمكن بيزهقكم عشان هو آخر واحد..

وأكمل..

* * *

يريد أن يفهم..

مرت سنون، لم يحصها، وهو يخاف أن يسأل هذا السؤال بالذات..

كان أبوه وزوجه أبيه قد سافرا إلى بلد عربية، آخذين معهما أخاه وأخته، في رحلة أسبوعية.. في حين رفض هو بشدة، ولم يصرّوا هم على شيء.. فذهبوا، جاعلين أم (مروة) تسأل عليه كل يوم، وتجهز له الأكل.. فشعر أن هذا هو الوقت ليسأل سؤاله..

ذهب لأم (مروة) وطرق بابها، لتفتح له (مروة) الباب، وما إن رأته، حتى ابتسمت في ارتباك، فقال هو:

ـ أنا عاوز ماما..

فتحت الباب وهي تقول:

ـ اتفضل..

أصبحت جميلة حقا.. بدأ جسدها تظهر فيه بوادر أنوثة.. أصبحت رقيقة مؤدبة، تتكلم بصوت خفيض.. أصبحت لا تهتم بالـ(أتاري) وتهتم أكثر بالفساتين والـ(باربي) والأفلام العربية التي تأتي بعد كل صلاة جمعة.. أصبحت في تلك الحيرة، التي لا تدري فيها على أي شيء تحاسب.. يريدون منها أن تكون كبيرة، فتجلس مع الكبار المملين، ولا تفهم ما يقولون.. وتعاقب إذا بدت بلهاء في أي وقت، تركض وتلعب أو تقول شيئا أحمق.. أصبحت فتاة تبلغ الثانية عشر من العمر.. مثله تماما..

جلس على مقعد في الصالة، ذلك المقعد الذي كان موجود منذ القدم، لكنه لم يعبأ بأن يجلس عليه.. الأرض كانت تبدو أكثر إغراءً، بكل تلك الحرية واللعب الكثيرة.. لماذا يشعر أنه الآن مقيد؟.. لا يدري..

خرجت إليه أم (مروة) مبتسمة، لاحظ أنها ارتدت إسدالا واسعا، لم يعتد أن يراها به.. أدرك أن ذلك الشارب الخفيف الذي يحد شفتيه أصبح

شيئا كالجريمة، يحذر الناس منه ويخافونه.. حتى أبوه أصبح يتشاجر مع زوجته كثيرا، لأنها ترتدي ثيابا غير لائقة وهو موجود.. مع أنه لم يفكر ولم يلحظ أي شيء من قبل.. لكنه يشعر باختلاف الدنيا حوله.. أصبح من حوله لا يعاملونه كطفل.. ولا يعاملونه كرجل.. فقط.. يخشونه ويتجنبونه حتى تمر تلك المرحلة..

مرحبا بك في مرحلة قتل الطفولة، بكل قيمها ومبادئها وأحلامها.. لمرحلة الدنيا الحقيقية..

الواقع..

تنحنح لحظات، وهو يقول بصوت خجول:

طنط (منى)، أنا كنت عاوز اسألك سؤال.. بس تجاوبيني عليه بصراحة..

قالت (منى) بابتسامة طيبة:

ـ اؤمرني يا حبيبي.. دا انت ابن الغالية..

نظر لها، وقد شجعته كلمتها على أن يلقي سؤاله بسرعة:

ـ هو حضرتك تعرفي ليه ماما انتحرت؟..

ولم تتوقع (منى) ذلك السؤال.. لكنها، منذ أن ماتت والدته، وهي تريد أن تخبره بكل شيء.. وهو بلغ من العمر ما يجعله يفهم.. أو هذا ما أقنعت نفسها به..

لذا، ودون أن تضيع وقت، وكأنها ترمي حملا من على صدرها..

بدأت تروي..

* * *

نظر (ب) لتلك العصي المعدنية، التي أخبروه أنها ستصبح رفيقة كفاحه طوال عمره..

اتكأ عليها رغم ألمه الشديد، وتحذيراتهم الشديدة، لكنه نهض.. ملّ من الفراش.. ملّ من الألم.. ملّ حتى من نفسه..

خرج للشرفة، التي افتقدها حقا.. في حياته، لم يكن يتوقع للحظة أن يفتقد مكانًا يبعد عنه بأمتار قصيرة.. لكنها الحقيقة..

وجد هناك (سارة)، التي ما إن رأته، حتى ذهبت مسرعة لتسنده.. وضع يده على كتفها، وذهب بها حتى السور في صمت.. لم تعد تتحدث عن شيء، ولم يعد هو قادرا على الكلام.. في المستشفى، ليس هناك ما يقال.. كل المشاعر معروفة ومفهومة، لدرجة السذاجة..

مضت عشر دقائق، وكل منهما ينظر للنيل ولا ينطقان بكلمة.. هل هناك داع للكلام؟.. طوال عمره يكره هؤلاء الذين يحاولون أن يقولوا أي شيء في العزاء.. في النهاية لا ينطقون إلا كلاما محفوظا، ولا يقولونه إلا ليشعروا أنهم أتموا واجبًا ما.. ليشعروا بالرضا عن أنفسهم.. لكن ذلك الذي مات له شخص ما.. لا أحد يشعر به، ولا حتى يقترب من الفهم..

شعر بآلام مُلِحة.. ذلك الوجع الذي يجذبك لأسفل، كطفل سخيف يريد أن يذهب للحمام.. يظل يجذبك وينادي عليك، حتى تطيعه مرغما.. لكن عناده أبى أن يستسلم لذلك الوجع.. فقط بدأ يتصبب عرقا، وبدأت قدمه بالارتجاف السريع عند فخذه. شعرت (سارة) به، فنظرت له، لكنها لا تتكلم.. وارتاح هو لذلك.. الصديق الحقيقي هو الذي يعلم معنى صمتك، ويظل جانبك دون أن يفتح فمه..

سمع خطوات ثقيلة تأتي من خلفه، ثم يد تمسكه من كتفه، وصوت (عبد الحميد) يقول في حنان:

ـ أنا جبتلك كرسي.. اقعد شوية..

لم ينطق بكلمة أيضا.. ورغم كبريائه جلس.. مهزوما لذلك الألم جلس.. لا ينظر لهما، ولا هما ينظران له.. فقط ينظر للنيل، الذي لايستطيع

الاستمتاع به الآن، من تلك القضبان الحديدية للسور.. لأن ذلك المقعد ـ ككل المقاعد ـ مصمم بحيث لابد له من أن ينظر من أسفل.. من خلف تلك القضبان..

كانت (دنيا) تتصل به من الحين للحين.. تطمئن عليه، كنوع من أنواع تأدية الواجب.. شعر أنها أدركت أخيرا ما أدركه هو بعد العملية مباشرة.. هو يحمل من المسئولية والاحتياج ما لا طاقة لها به.. لكن برومانسية النساء، لا يدركن ما يدركه الرجال بعقولهم مباشرة.. لن تستطيع التحمل.. العلاقة القصيرة انتهت، بآمالها وتطلعاتها ورومانسيتها.. كل شيء ينتهي، لكن ببطء يكفي لكي لا يتألم أحد فيها أكثر مما ينبغي.. فقط تظل مشكلة أن حتى تلك الصديقة، التي يحتاجها الآن بشدة.. غير موجودة الآن، فقط لأنها شاركت الحبيبة نفس الجسد.. وهذا ظلم..

حمد ربه أنه اختار أن يأخذ أهله في مرحلة مبكرة.. حمد الله أنه رحمهم من تحمل ابن شبه معاق طوال حياتهم.. حمد الله أنه لم يشعر باليتم إلا في لحظات قليلة، وعندما ماتت أمه بالتحديد.. لكن بعد ذلك، وبتلك النقود الهائلة التي تركوها في الميراث والتعويضيات والتأمين، ضمن مستقبله لعشرين سنة مقبلة.. فقط بقي عليه سنة، حتى يصل لسن الثامنة عشرة، ويفتح البنك اعتماده لأنه وصل لسن الرشد..

ضرب الهواء وجهه بشدة، فشعر بالحياة قليلا.. حاول أن يبتسم وأن يلقي دعابة، لكن لم يجد بداخله الروح، لذا نظر لـ(عبد الحميد) قائلا في لهجة جادة:

ـ (عبد الحميد).. هات سيجارة..

نظر له (عبد الحميد) في شفقة، فنظر له (ب) بصرامة.. لا يريد تلك النظرة أن تبدو على وجه أحد من أصدقائه.. قالت (سارة) في قلق:

ـ ليه كده.. أنت قلت إنك بتكره كل اللي بيشربوا سجاير.. هتشرب ليه؟

لم ينطق بكلمة، في حين ناوله (عبد الحميد) سيجارة في هدوء، وهو يقول لـ(سارة):

ـ ماتحاوليش معاه.. هي لما بتطلب بتطلب.. ولو منعناه هيروح يجيبها من برّة..

قالت (سارة) في حنان أمومي:

ـ لأ... مش هايقدر يروح يجيبها..

نظر لها (عبد الحميد) في لوم فأدركت أن كلمتها غير ملائمة تماما، في حين لم يبدو على (ب) أنه سمع وهو

يأخذ السيجارة، وأشعلها بقداحة (عبد الحميد)، وهو ينظر لـ(سارة) متحديا، ويسحب نفسا عميقا..

ورغم كل التوقعات، ونظرة (عبد الحميد) الساخرة، إلا أنه لم يسعل، ولم يبد حتى أنه تأثر بشيء..

نظرته أعطت (سارة) إجابة سؤالها في صمت..

أنه بدأ يكره نفسه..

نظر (ب) للسيجارة متأملا لحظات، بعد أن أخذ أكثر من نفس، ثم قال بهدوء:

ـ تفتكروا السيجارة بتحس بأيه لما احنا بنولع فيها ونقعد نسحب من مؤخرتها كده؟.. مش ده تحرش برضه؟..

ورغم كل تلك الكآبة، ضحك (عبد الحميد)، وابتسمت (سارة)..

واستعاد (ب) جزءًا، ولو صغيرًا من شخصيته..

ابتسامة!..

* * *

نظرت (علا) لـ(ج)، الذي كان يجلس منتظرها في ذلك الكافيه..

في كل مرة تراه فيها تشعر بدقات خفيفة تعلو في قلبها، وهي حتى الآن لا تستطيع أن تدري لها سببا..

جلست جانبه وليس أمامه تلك المرة، فابتسم دون أن يعلّق، لتقول هي محاولة تخفيف الجو:

- هو انت دايما بتيجي قبلي كده؟.. انا النهارده بالذات جيت بدري عشان اسبقك..

ابتسم ابتسامته الحانية، التي، رغم كل شيء، مازالت تراها ساحرة، وهو يقول:

- انا دايما باجي قبل معادنا بنص ساعة.. عشان افضل احلم بيكي لحد ماتيجي..

رغم أن كلامه يبدو مبالغا فيه، إلا أنها تصدقه، لأنه يقوله بإيمان حقيقي، فابتسمت في خجل، ثم تذكرت ما أتت من أجله، لتتنحنح قائلة:

- نتكلم جد بقى..

نظر لها بتركيز، فقالت:

- احنا الدنيا بيننا بدأت يبقى فيها تنشنة كتير.. وانت عارف ان خطوبتنا خلاص فاضل عليها يومين.. انا مااعرفش حاجة عنك وعن ماضيك.. وبالتالي مش فاهمة أنا باضايقك في ايه ومش باضايقك في ايه.. فأنا مش هامشي من هنا غير لما تفهمني.. غير لما تقول لي كل حاجة صغيرة عنك.. عشان نعرف نحل كل حاجة..

هم بالكلام، فقالت قبل أن ينطق:

- وده آخر كلام عندي.. ده حقي.. ولازم أعرف..

صمت وهو ينظر للأرض لحظات، ثم قال بابتسامة، لم تفهم معناها:

ـ أنا بس كان نفسي أحكيلك بعد أول يوم في شهر العسل..

أومأت برأسها أن لا في قوة، وقالت:

ـماينفعش.. فرضنا انك اعترفت لي انك كنت سفاح أو حرامي مثلا؟..

ضحك في سخرية، فصاحت فيه:

ـ مش تتريق عليَّ.. أنا فعلا لازم أعرف..

ثم قالت بغيظ:

ـ وأول حاجة لازم أعرفها.. انت عرفت ازاي اني كنت هانتحر؟..

انتهى من ضحكته، ثم نظر لها نظرة تعشقها، وقال بهدوء:

ـ ماشي يا ستي.. أنا هاحكي لك كل حاجة.. بس بشرط أنك ماتزهقيش..

ابتسمت في ثقة، فقال هو:

ـ وعشان أقول لك عرفت ازاي.. لازم أحكي لك كل حاجة من الأول..

نظرت إليه، لا تستطيع أن تمنع تلك اللهفة التي تتصاعد بداخلها..

فأخيرا.. ستعرف كل شيء..

* * *

صعد (أ) للسطح في سرعة، ليجدها واقفة تستند على السور وتضحك له..

تلك الضحكة التي تحتوي كل أحزانه في ثوان..

كانت السماعات تصدر تلك الموسيقى الحزينة، التي كان يسمعها في شقته..

الأمل.. والألم..

كانت الشمس قد بدأت تميل للغروب، فأضفى للمكان سحرا لا يقاوم..

كعادتها.. تخلق السحر أينما وجدت..

اتجهت إليه بخطوات واثقة، فابتسم وهو يقول:

- ايه سبب الوهم اللي حاصل ده؟..

قالت وهي تسحبه من يده مسرعة به للسور، فقال ساخرا:

- هترميني من فوقيه أخيرا؟..

جعلته يسند على السور بحنان ورفق، ثم وقفت أمامه قائلة بابتسامة:

- أولا.. أنا عاوزه أقول لك حاجة، مش عارفة ليه شكلك نسيتها..

ومالت عليه وقبلته في فمه قبلة طويلة، ثم قالت بعشق:

- أنت جوزي.. أنت كل حاجة ممكن أكون حلمت بيها ولسة هاحلم بيها.. انت مش عارف انت عملت فيا ايه؟.. انت جيت لواحدة بتموت وخليتها عاوزة تعيش وعندها أمل... انت مش شايف نفسك مهم ازاي عندي.. هافضل كل يوم اثبت لك ده لحد ماتقتنع.. احنا قدامنا العمر كله..

ابتسم بحنان، فقالت هي:

- تاني حاجة.. احنا هنعزل هنا.. في شقتي أنا.. عشان ماينفعش تفضل قاعد في نفس المكان اللي حصلت فيه كل حاجة وحشة في حياتك.. انت حكيت لي على كل حاجة حصلت لك.. وكلها حصلت لك في الشقة دي.. ماينفعش نفضل عايشين فيها وكل ركن فيها بيفكرك بمأساة.. لازم مكان جديد.. لازم تبدأ صفحة جديدة فعلا مع نفسك.. ومعايا.. عشان كده هننقل هنا في الشقة الصغيرة دي.. والسطح ده يبقى بتاعنا احنا بس.. كفاية وجع عشان خاطري..

أعجبته الفكرة، وتعجب من أنها لم تخطر بباله من قبل، في حين أكملت

هي بنفس الحماس:

ـ أنا وأنت مالناش غير بعض.. وانت مش عارف يعني ايه البنت مننا لما تلاقي واحد فيه كل اللي بتحلم بيه.. رجولة وعمق وعشق ورومانسية.. انك بتفهمني من غير ما اتكلم.. انك حتى في عصبيتك حنين عليَّ.. انك محسسني أنك أبويا وأخويا وجوزي وابني.. البنت مننا لما بتحس أنها لقت فارس أحلامها.. بتفضل طول عمرها كل اللي بتفكر فيه ازاي تسعده.. ازاي ترضيه وتجيب له النجوم لو يطلبها.. بس.. تلاقيه..

صمت تماما، وهو يتأمل كل تفصيلة فيها.. ضحكتها، غضبها، عفويتها، وعقلانيتها، براءتها وعمقها وسذاجتها..

يعشقها بكل تناقضاتها..

إنها كل ما يحلم به أيضا..

قالت هي، تكمل ما بدأته:

ـ فانا هاتفق معاك اتفاق..

نظر لها مبتسما، لتقول هي بخجل من نظرته العاشقة:

ـ انا مش هامشي.. ولو في أي إحساس بالبعد أو أني ممكن أهرب.. هاقولهولك.. انسى كل الحاجات الوحشة.. وافتكر أني وعدتك أني هاريحك واقول لك كل حاجة.. فماتخافش.. وثق فيّ قوي.. وانا والله وعد هاقول لك على كل إحساس صغير هاحسّه.. ماشي؟

قال هو وهو يرفع حاجبه بتحد:

ـ في مقابل؟

قالت هي بضحكة مشرقة:

ـ في مقابل أنك تفضل تحبني زي ماانت بتحبني.. ده أساسي..

ثم أكملت بهمس:

ـ بس الأهم.. انك تستحملني الفترة اللي جاية وتراعيني قوي.. وتاخد بالك على ابننا قوي..

نظر لها لحظات في عدم استيعاب، فقالت هامسة ودموع الفرحة تتلألأ في عينيها:

ـ أنا حامل..

انتفض جسد (أ) وهو يعتدل في وقفته، وينظر لها بذهول، فضحكت هي لتقول بسعادة:

ـ أظن مافيش أكتر من ده إثبات اني هافضل معاك العمر كلّه.. انت لبست يا معلم!..

لم يصدق، وداخله فرحة طاغية، جعلته يحملها ويدور بها حول نفسه، وهو يصرخ في سعادة، فضحكت هي بصوت عال، ثم صرخت فيه:

ـ كفاية.. أنا دخت..

أنزلها أرضا وهو يضحك، لتقول هي بصوت لاهث:

ـ والدوخة للحوامل مأساة.. ممكن تلاقيني رجّعت في وشك دلوقتي حالا..

ضحك بصوت أعلى، وقال:

ـ أنا باعشقك..

لتذهب هي وتضع رأسها على كتفه، وتحتضنه بحنان قائلة:

ـ وأنا باموت فيك..

ضمها له أكثر، وأغمض عينيه، تاركا كل إحساس رائع يتخلله بهدوء شديد..

شعر أن حياته كلها.. بكل ما مر به.. كان يجهزه لتلك اللحظة فقط..

ليجعله يعرف قيمة تلك اللحظة..

قيمة حضنها..

ظلا هكذا، حتى هدأ قلباهما، فتركت حضنه لتنظر له، ليقول هو بحماس غامزا بعينيه:

ـ ايه رأيك أتجنن آخر مرة؟

قالت له بقلق لا تدري مصدره:

ـ يعني أيه؟

ذهب هو مسرعا، ليقفز فوق السور، ويحاول الوقوف عليه، فصاحت هي فيه تلك المرة:

ـ انت بتعمل أيه؟.. انزل..

قال هو، وهو يضحك:

ـ ماهو أنا لازم أحتفل.. النهارده عرفت أني هابقى أب..

ونظر لها بحنان مكملا:

ـ وأول مرة ماحسش بوجع بجد..

قالت بقلق غريب:

ـ بس انزل بس، عشان أنا خايفة عليك..

ضحك هو بسعادة، وهو يترنح فوق السور محاولا إيجاد نقطة اتزان، ثم قال:

ـ أمال فين أيام زمان لّما كنتِ بتمشي على السور من غير خوف؟..

قالت بخوف حقيقي، وهناك شيء داخلها يقول إن الأمور لن تسير على ما يرام:

ـ ماكنتش لاقيتك..

نظر لها لحظات، متذكرّا ذلك الموقف عندما كان معكوسا.. نظر لها بعين

تقطر عشقا، وقال:

ـ أنا بحبك قوي..

نظرت له بحنان...

ذلك الرجل الذي جعل كل شئ سهل وبسيط..

رجل عرفت معه أن كل ما كانت تحلم به في حياتها، موجود في ابتسامة رجل متألم...

هو لا يعرف قيمته..

علمته الحياة أن ينسى كل شئ عنه ويعافر في درئ المصائب التي تهبط على رأسه كل يوم..

لكنها لم تعلمه أن يدرك أنه رجل قوي يحارب كل يوم من أجل اسعادها، وتشعر في حضنه أنها أضعف من ريشة...

رجل حنون، يضحك لها ويتشبث بها كطفل ضائع يحتمي بأمه...

لم تمنع نفسها من ابتسامة حنان، وهي تنظر له وهو يحاول أن يقف دون أن يهتز مثلها، بسعادة طفل برئ وجد تحد في لعبة جديدة... ثم ينظر لها بحنان الدنيا كلّة شاردا في عينيها القلقة والحنونة..

نظرت له لحظات بعشق ثم..

لم يجد مركز اتزان من شروده..

لذا.. وسط نظرتها العاشقة.. وجدته يختفي من أمام أعينها..

يميل جسده للوراء، وهو يلوح بيده في محاولة للاتزان..

لكنه لم يفلح..

نظر لها بذعر لحظات.. مد يده كي تمسكه، لتتحرك هي محاولة اللحاق به، لكن لم تكن سرعتها كافية..

وهوى..

بتلك القسوة.. هوى..

كان هناك أمامها في لحظة.. ثم أختفى..

بتلك البساطة القاتلة..

سمع صرختها، لكنه لم يفهم معناها..

مرت حياته كلها أمام عينيه في ثوان معدودة، وتوقفت كلها في النهاية عند صورتها..

ورغم كل شيء..

ابتسم..

* * *

ثم يسأل نفسه السؤال الأهم..

هل تريد أن تحلق حقا؟..

هل تريد أن تشعر كأنك طير بلا أي قيود أو جاذبية؟

أم أنك تريد تلك النهاية السوداء؟

* * *

السقوط الحر..

ما الجديد فيه؟..

منذ أن خلقت وأنت تسقط سقوطا حرا..

كل ما ربيت عليه.. كل ما تعشقه.. كل أخلاقك وأحلامك و «كمالك».. يتناقص تدريجيا حتى لحظة الاصطدام الأخيرة وهي الموت!..

* * *

تأمل وجهها في السطح، وهي تنظر له برعب، منادية إياه باسمه في ذعر..

تأمل دموعها، التي تتساقط من عينيها محاولة اللحاق به..

وكأن الدموع ستنقذه!..

لكنه لم يكن يريد تلك النهاية...

كل ما ظل يبحث عنه هو ذلك الشعور بالسقوط الحر..

بالحرية والانطلاق وانتهاء الوجع..

لكنه شعر بكل شيء..

دون أن يسقط..

ألا لعنة الله على الدنيا الساخرة؟...

ملأ عينيه بوجهها الذي سحره..

ثم أغمض عينيه..

وهمس «بحبك»..

ولم يدر بشيء بعدها..

* * *

قال (أسامة)، وهو يرى دموع الطالبات، لكنه يتاجهلها عمدا وهو يعد المشاعر بيديه:

ـ الاحترام.. الاحتواء.. الصراحة.. التضحيات.. الصفقة..

نظروا إليه في عدم فهم، فقال هو بسرعة، ليتشلهم من تلك الكآبة:

ـ هي دي المشاعر والحلول اللي بتقف قدام أي مشاكل في الدنيا.. اللي بتقف قدام مشاكل المرحلة الخامسة كلها.. ازاي تعرف تحترم مشاكل

وعيوب اللي قدامك وماتحاولش تغيَّرها.. ازاي تعرف تحتويه من غير ما تحسسه بالذنب.. ازاي تعرف تصارحه وتكون صادق معاه في مشاعرك السلبية والإيجابية.. وتعرف تضحي أو تتنازل عن ايه فيك، عشان تعرف تسعده وتلاقي حل في العلاقة.. وازاي تعمل صفقة.. قصاد كل حاجة تضحي بيها، هو هيضحي بحاجة في المقابل.. عشان تعرفوا توصلوا لنقطة تلاقي.. تعرفوا توصلوا لنقطة تفاهم..

وصمت قليلا وهو يقول في حماس:

ـ الكلام سهل قوي على الورق.. بس تنفيذه من أصعب ما يكون.. أنا عارف أنكم دلوقتي حاسين أني عامل زي الشيخ اللي مهما اشتكيت ليه من مشاكلك، يقول لك لازم تصلّي.. الحل تقليدي ومافيهوش جديد.. بس هي المشكلة اللي في زماننا دلوقتي أننا نسينا كل ما هو تقليدي.. الحلول دي هي الخلاصة.. بس محتاجة اتنين بيحبوا بعض قوي، عشان يعرفوا يتعبوا للوصول للحلول دي.. ربنا خلق كل واحد فينا بعقده ومشاكله ووجعه وقرفه.. وخلقنا في مجتمع مقرف أكتر.. ماحدش بيتكلم.. ماحدش بيحاول يفهم.. فبنوصل لنقطة الفراغ.. أو نقطة الرجوع، عشان نرجع لنفس الدايرة تاني من المشاكل من غير ما نحل.. اللي مش هيعرف يعمل الحاجات دي بيستسلم للواقع بتاعه.. وبيستسلم لنتايجه، اللي عادة بتبقى ملل وفتور وكدب وخيانة وطلاق..

وقال في قوة:

ـ أحب أقول لكم يا سادة أن كل اللي جرب حاجة زي كده وماعرفش.. يبقى هو مش عارف يحب.. لو الطرف التاني ماالتزمش أو ماحاولش أصلا.. يبقى الطرف التاني مابيحبش.. الحب الحقيقي هو الحب اللي كل الناس بتتعب فيه قوي كل يوم وكل ثانية.. عشان يعرفوا يوصلوا لنقطة تلاقي تخلي الحياة «شبه» حلوة.. لأن ببساطة شديدة.. الحياة عمرها مابتبقى

حلوة.. بس بتبقى أحلى مع حد مقدَّر وجودك في الدنيا..

ثم أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

ـ المرحلة السابعة هتبقى مختلفة تماما..

قاطعته إحدى السيدات الباكيات:

ـ مرحلة سابعة ايه بقى.. مش باقي يا حبة عيني غير (ج) و(د)..

ابتسم (أسامة)، وقال بهدوء:

ـ المرحلة السابعة هي مرحلة النهاية.. إذا كان فعلا كل شيء هينتهي ولا هيكمل.. القرار ده من أصعب المراحل.. من أصعب الأدوات.. في ناس بتبقى جبانة جدا.. لدرجة أنها ممكن تكمل حياتها كلها في علاقة جواز فاشلة عشان مش عارفة تقرر.. في ناس بتنفصل لأنها مش عارفة أصلا تحارب.. المرحلة السابعة هي خاتمة المراحل كلها..

ثم غمز بعينه وهو يقول:

ـ مش ملاحظين أن احنا طول الوقت بنتكلم عن (ج) من وجهة نظر (علا).. من إحساسها ناحيته؟.. انا اتسألت في محاضرة قبل كده سؤال مهم.. مادام (علا) هي البطلة.. ليه ماتبقاش هي (ج).. أو يعني نرمز لها هي بالحرف.. ليه مصممين نرمز للشخص اللي مش عارفين حاجة عنه بالحرف (ج) كأن هو بطل الحكاية..

ثم أكمل:

ـ المرحلة السابعة بطلها هيبقى (ج) بس.. وهنعيش الدنيا من وجهة نظره هو.. عشان نعرف ليه..

قال أحد الطلاب:

ـ بس احنا ماعرفناش حكاية أم (د) أيه؟..

ابتسم (أسامة) ابتسامة خبيثة وهو يقول:

ـ مش انتم اللي قلتم إنكم زهقتم منه ومش فاهمينه؟.. انا هارحمكم منه المرحلة دي عشان نركز في المهم..

كتموا غيظهم الشديد تلك المرّة، ربما لاقتراب النهاية، فقال (أسامة) ناظرا لساعته:

ـ فاضل نص ساعة من المحاضرة.. عدى خمس ساعات ونص.. ووصلنا للنقطة دي.. لأهم قرار في القصص.. (علا) لما تعرف كل حاجة عن (ج).. هتكمل ولا لأ

كان يحاول أن يضفي أكبر قدر من الحماسة والتشويق، لكنه وجد وجوههم مازالت عابسة، بل وتريد الخلاص، شعر بذلك الخوف الغريزي الذي يأتيه في نهاية كل محاضرة.. هل استفادوا حقا، أم يشعرون الآن أن كل أموالهم ذهبت هباءً؟..

قال، وهو يكتب على السبورة تحت كلمة (هيبتا):

ـ المرحلة السابعة والأخيرة.. النهاية..

* * *

٧ـ هيبتا

لم يكن يتخيل أنه سيحكي كل شيء بتلك البساطة..

لا يدري لماذا؛ لكنه كان يتخيل أنه سيحكي سرّه هذا في موقف رومانسي أكثر.. وسط تحضير ملائم وموسيقى هادئة.. وتشويق أكثر..

نظر لـ(علا)، التي مازالت ترتدي حجابها الرقيق، بعينين واسعتين تتأمله، منتظره منه أن يحكي..

قال بسخرية، مدركا أنها محاولة فاشلة:

ـ مش عاوزاني ارسم لك حاجة طيب؟

نظرت له نظرة صارمة، فابتسم في هدوء..

إنه حتى لا يعلم من أين يبدأ..

نظر لها لحظات ثقيلة..

هناك أشياء نحسها من داخلنا.. مصدرها مجهول ولا نفهمها..

ذلك الشيء أخبره أن (علا) ليست هي الفتاة التي يريد أن يحكي لها..

هناك شيء ما.. غير صحيح..

غير مكتمل..

لكنه يراها زوجته..

رأى فيها ما سحبه من دنياه كلها، وجعله يريد أن يخطفها أيا كان الثمن..

لكن شيئا ما ظل يلح عليه.. أنها ليست هي من يستطيع أن يأتمنها على كل شيء..

لكنه كذَّب نفسه..

نظر لها، ناسيا كل مخاوفه، وهو يشعل سيجارة، فنظرت له لائمة، لأنه وعدها ألّا يشرب سجائر أمامها ثانية. لكنه لم يهتم، وقال بهدوء، ليخرج صوته عميقا كما اعتاد:

- انا عاوز أحكي لك شوية عن أمي..

* * *

قال (أسامة) بصوت عالٍ:

- النهايات... والبدايات...

* * *

قال (ج) بصوت متزن:

- أنا أمي الله يرحمها.. كانت أعظم أم في الدنيا.. انا عارف ان كل الناس بتقول كده على أمهم.. بس أنا أمي كانت مختلفة.. كانت بتعاملني غير أي حد.. أمي وهي شابة كانت تربيتها صعبة قوي.. عايشة في بيت متحفظ.. مش عارفة تعيش حريتها.. مش عارفة تفهم أصلا يعني ايه قيود.. كانت عايشة في بلد من بتوع الفلاحين، مش فاكر هي ايه بالظبط.. المهم.. هربت من البلد مع واحد بتحبه.. وكانت علاقة الحب دي اتولدت في ظروف بنت كلب.. بس حبوا بعض قوي.. لقوا نفسهم في بعض.. وعلى أيام أمي، كانت الدنيا صعبة قوي من حيث تعريفاتهم للقيم والأخلاق والحاجات دي..

تنحنح ثانية ثم أكمل:

- المهم يعني.. هربت مع حبيبها ده.. سافروا برة البلد خالص.. راحوا أمريكا وقعدوا هناك تلت سنين في قمة العشق.. هي اتعلمت في جامعة

هناك.. وهو كان أكبر منها فاشتغل شغلانة كويسة.. في السنة الرابعة بعد ماتخرجت.. سابها.. من غير أسباب.. من غير أي حاجة.. سابها.. اداها فلوس كتير قوي وقال لها ترجع مصر.. رجعت وهي متدمرة.. عشان تكتشف وهي في مصر أنها حامل..

وأشار لنفسه باسما:

ـ فيّ..

اتسعت عينا (علا) في دهشة غير مصدقة، فقال هو بسرعة:

ـ همّا كانوا متجوزين هناك.. انا مش ابن حرام يعني ماتقلقيش..

قالت له:

ـ أكيد أنا مش قصدي كده.. انا مستغربة أني مااعرفش أي حاجة خالص كده..

تنحنح (ج) قائلا:

ـ المهم.. وهي بتولدني حصلت مشاكل مش عارف ايه هي.. وعرفت أنها مش هتخلف تاني.. بدأت تعيش حياتها واشتغلت بشهادتها اللي من برّة، وهي بتراعيني وبتكافح معايا وبتعشقني.. كل حياتها كانت ليَّ بجد.. لحد ما قابلت راجل متدين حبّها قوي.. عرف ظروفها كلّها.. وأصر أنه يتجوزها.. وهي حبته جدا.. فوافقت.. وصاحبتها كانت جنبها شقة فاضية، فأخدوها إيجار قديم.. عشان أكبر أنا في بيئة صحية جدا.. والراجل بيعاملني كأنه أبويا فعلا.. أنا بحبه لحد دلوقتي وباحترم ذكراه جدا.. وعايش من خيره الصراحة.. الله يرحمه..

قالت في خفوت:

ـ الله يرحمه..

أكمل (ج)، وهو مازال يشعر أنه يحكي للشخص الخطأ:

ـ لحد ما بقى عندي ٨ سنين، وكنت ساعتها بحب بنت الجيران زي أي طفل.. كان اسمها (مروة).. المهم.. رجعت من عند جارتنا عشان ألاقيها منتحرة.. قطعت شريانها بسكينة..

شهقت (علا) في ذهول، ثم تحولت ملامحها لشفقة، في حين أكمل هو:

ـ لحد دلوقتي ماحدش عارف هي انتحرت ليه.. ممكن عشان جوزها كان ملتزم شوية وفرض عليها قيود كتير قوي.. ما كانتش بتنزل ولا عارفة تفكر بحرية.. وهي واحدة الحرية بالنسبة لها حياة.. ممكن عشان مش عارفة تنسى أبويا لحد دلوقتي.. المهم.. الراجل فضل يعاملني معاملة كويسة جدا، وفضل بيعاملني زي ابنه، لحد ماتجوز تاني وخلف من مراته ولد وبنت زي العسل.. والعيشة بدأت تستقر.. سافروا للسعودية أسبوع، عشان وهم راجعين تقع بيهم الطيارة.. ويستشهدوا كلهم..

شهقت (علا) مرة ثانية، شهقة آلمت (ج) أكثر، فقال بسخرية يتقنها عندما يتألم:

ـ انا نحس قوي أنا عارف..

ربتت على يده في شفقة، فأبعد يده لأنه يكره الشفقة، وقال ناظرا لها:

ـ ودي إجابتي عن سؤالك.. ازاي عرفت انك انتحرتِ قبل كده.. انا وانا صغير كنت بشوف عين أمي كل يوم ومش عارف هي حزينة قوي ومخنوقة قوي كده ليه.. الكسرة اللي في العين اللي ماحدش يعرف يوصل لها إلا اذا كان مات قبل كده أو جرب الموت قبل كده.. شفتك.. كأني شفت عين أمي قدامي.. حتى في رسمتي ليكي على المنديل.. كنت بارسمها هي.. مش أنت..

ابتسمت في حزن، وهي تتذكر وجهه وهو يرسم ذلك الرسم..

* * *

نظرت (مروة) لذلك العريس الذي جاء لها من طرف أحد الأقارب من بعيد...

في حياتها، لم تعرف الا كيف تكون طبيعية...

أحلام بسيطة...

التفوق الدراسي، ثم الجامعي، الالتزام في الدين، العمل... انتظارا لتلك اللحظة التي أشعروها أنها أهم من الحياة ذاتها..

أن تجلس أمام عريس يبدوا مرتبكا، يبدو عليه الطيبة والحنان... يصلّي... ويعمل مهندسا في شركة كبيرة...

لا تدري لماذا تذكرت (د).. وكيف تمنت أن تعود لأيام البراءة وعدم التفكير في كل المسئوليات التي ما أن تنتهي من واحدة يظهر لك الاف المسئوليات الجديدة التي تثقلك...

لكنها نظرت للعريس متجاهلة أفكارها وذكرياتها... وابتسمت..

شعرت بقبول بسيط له، جعلها تنظر لأمها في نظرها فهمتها أمها على الفور، وابتسمت في ارتياح..

معلنة بداية دائرة جديدة في حياة (مروة)...

* * *

قال (ج) في ابتسامة:

ـ كملت دراستي عادي جدا.. الورث اللي سابه أبويا والتعويض والتأمينات كانوا باسمي أنا وأخواتي... ولأن اخواتي ماتوا معاهم ورثت انا الجزء الأكبر.. تحت رعاية أم (مروة) لحد ما أبلغ الـ١٨ سنة.. الدنيا بالنسبة لي ساعتها، عشان سني ماكنش مستحمل اني أفهم قوي.. الدنيا كانت بسيطة.. كونت في المدرسة أصدقاء كتير قوي وكنت بالعب كورة

حلو.. لحد ما لقيت أن في حاجة واجعاني قوي.. عشان بعد الكشف.. يطلع عندي ورم حميد، بيضغط على العمود الفقري بين الفقرة الرابعة والخامسة..

* * *

تأملت (دنيا) ذلك الشاب الذي ينظر لها دائما...

كانت تعشق الرسم.. لذا دخلت كلية فنون جميلة... مصممة أن تبدأ حياة جديدة بعد ذلك الجرح الذي سببته لـ(ب).. أو سببه هو لها...

لم تفهم حتى الان كيف لم يقدّر ظروفها..

كيف أغلق كل شيء في وجهها وتركها في لحظات قليلة.. لم يسامحها بعدها أبدا..

كانت تبكي طوال الوقت من ذلك الألم في قلبها..

لكنها تعترف انها شعرت ببعض الراحة..

(ب) كان به الكثير على أن تتحمله واحدة لها أحلام مثلها..

طردت تلك الأفكار من رأسها، عندما وجدت ذلك الشاب يتجه اليها في تردد.. ويقف أمامها قائلا:

ـ ازيك؟... انت أول سنة؟

أومأت برأسها أن نعم، وهي تبتسم..

ابتسامة نسيت كل شيء عن أحلامها، ومتذكرة فقط كم تتشابه ابتسامة ذلك الشاب بابتسامته..

(ب)..

مثيرة مشاعر لا تدري عمقها...

* * *

وأكمل (ج) بابتسامة، كأنها يتذكر فترة لطيفة وهو يشعل سيجارة أخرى:

ـ عملت العملية عند دكتور مشهور قوي.. قعدت في المستشفى شهرين تقريبا.. وحصل ان الدكتور أصاب أحد الأعصاب الطرفية.

ثم أكمل، كأنها يسمّع من كتاب قراءة:

ـ «فأصاب الطبيب الأعصاب الطرفية اليسرى، مما أدى إلى الشلل في عضلات الساق اليسرى».. أنا حافظ التقرير ده..

نظرت له في عدم فهم، ثم قالت في استنكار

ـ انت قصدك انك بتعرج؟..

نظر لها وهو يتوقع منها ذلك السؤال.. فالآن قد تدرك هي لماذا يصر دائما على التواجد قبلها في المكان.. تدرك لماذا عندما تقترح عليه أن يتمشيا قليلا، كان يرفض بشدة، متعللا بمئات الحجج.. كيف عندما كانت تركب معه العربة ينزلها في المكان، ثم يتعلل أنه سيركن العربة ويأتي.. رغم أن العرجة كانت غير ملحوظة على الإطلاق، لكنه كان يخشى ذلك بشدة..

لا تعلم ان يوم المطر ذلك، كان من أصعب الأيام لأنه كان يخفي العرجة بشدة، وكان هذا يؤلمه أكثر من ما تتخيل هي.. لكنه نجح..

قال لها بهدوء:

ـ العملية دي كانت نقطة تحول في حياتي.. عارفة لما تعيشي حياتك كلها بسبب غلطة مش غلطتك؟.. المهم.. اتعرفت على ناس فرقوا معايا قوي، منهم تاني حب في حياتي (دنيا).. علاقة ماستمرتش ٣ أسابيع.. عرفت اني هاعيش عمري كله ناقص.. أو عاجز.. بدأت أشرب سجاير رغم أني كنت باكرهها.. وقعدت بالظبط خمس شهور مكتئب في بيتي، مش باعمل أي حاجة.. لحد ما أخدت قرار أني لازم أبدأ حياتي بجد.. دخلت تاني تالتة ثانوي.. كنت بحب الرسم قوي لأنه كان بيفكرني بـ(دنيا).. فطول

الوقت في البيت كنت بارسم وانا لوحدي.. كنت لاقي نفسي فيه قوي.. ولما تقعدي ٢٤ ساعة مش بتعملي حاجة غير أنك ترسي.. بتعرفي تطوري نفسك فيه قوي فوق ما تتخيلي... لما تيجي ان شاء الله تزوريني هتشوفي.. بقيت رسام حلو قوي.. بعرف أرسم وانا مغمض عيني.. حسيت ان في حاجة واحدة أنا مش ناقص فيها.. بالعكس.. حسيت أني كامل ومختلف قوي عن كل اللي حواليا..

* * *

قال (أسامة) مكررا:

ـ البدايات والنهايات... الدواير المغلقة..

* * *

أكمل (ج):

ـ كنت مكسوف قوي من عجزي ده.. أخدت كورسات علاج طبيعي كتير قوي، لحد ما بقت العرجة شبه مش موجودة.. بس كنت باخاف دايما أنها تفلت مني ومااعرفش اتحكم فيها.. فأعرج قدام حد.. بقيت اجتماعي جدا.. بقيت باحاول أعمل كل حاجة مش محتاجة مني حركة.. وصلت للقمة.. لقمة ثقتي في نفسي.. قمة تغلبي على وجعي المستمر، اللي كان بيفضل ليالي مش مخليني أنام.. عرفت أخلق لنفسي العالم الكامل اللي باحلم بيه..

ونظر لها بعشقه كلّه قائلا:

ـ ولقيتك..

وليكمل بهمس:

ـ ومن ساعتها وانا مش عارف ألاقي نفسي غير معاكِ..

* * *

نظرت (سلمى) لكل شيء حولها.. وهي لا تدرك شيئا..

هل يدّعي (أ) الألم الذي لا يطاق؟..

هل لا يعلم أنها يتيمة أب، وعاشت عمرها كله في تحمل فراقه هذا.. حتى وجدته؟..

كيف يسبب لها (أ) كل هذا الألم الغير منطقي!..

هي لم تفعل شيئا..

كل ذنبها أنها أحبت شخص ضعيف..

لم يستطع هو أن يتحمل ألمها ووحدتها..

ابتسمت في سخرية وقالت لنفسها:

ـ «ماكنش قد وجعي»..

هل مرت شهور؟.. سنة؟.. سنتين؟ لا تدري...

كل ما تعرفه أنها ترفض كل من يريدها زوجته..

تتظاهر أنها تحاول أن تعرفهم... لكن شيء ما مات، لا تستطيع أن تحييه ثانية.. تلك الثقة ان الدنيا قد تكون أفضل.. أو أنها تستطيع أن تسلم قلبها لأي شخص اخر.. قد لا يكون «قد وجعها»..

قد تكون تخطت حبها لـ(أ) لأنها لا تشعر أنها تحبه على الاطلاق عندما استطاع أن يجرح بتلك القسوة..

لكنها لم تتخطى ذلك الألم الذي يأكل من روحها كل يوم..

نظرت للفيس بوك في نظرة شبه ميته، وكتبت دون أن تدري:

ـ ورقة في عرض البحر.. مكتوب عليها أنقذوني..

ثم تبتسم ساخرة.. عندما ظهرت في البريد الشخصي لها، ذلك الشاب الطبيب المهتم أكثر من ما ينبغي، يقول في الرسالة:

ـ أيه الاستيت دي؟... طمنيني عليكي..

لتقول هي ساخرة:

ـ مافيش يا بني ما تقلقش.. عجبتني بس فحطيتها..

ولا تفعل شيئا سوى أن تتذكر..

كم كانت حمقاء مثل ذلك الولد الطيب..

الذي قد يكون مناسبا الان..

لأنه الاختيار المنطقي!

* * *

نظرت له (علا) لا تدري ما تقول..

هل صدمتها قصته لدرجة أنها أصبحت لا تعرفه؟

أقسم لنفسه أنه لن يخبر أحدًا عن قصة أمه الحقيقية تلك.. ليس خجلا منه، قدر أنه يدرك أن لا أحد سيفهمها غيره.. ذلك الألم المستمر، الذي يجعلك تموت مئة مرة في اليوم.. وتحاول أن تعيش أيضا كل يوم..

إنه الآن صفحة بيضاء أمامها، كما طلبت.. عرفت الآن لماذا لا يعرف كيف يثق في البشر.. عرفت كيف يعرف كل شيء عنهم، لأنه عاش طوال عمره بعيدا عنهم يتأملهم فقط من بعيد.. يتأمل تلك الحرب العشوائية على أشياء تافهة، لا تزيد من طعم الحياة إلا طعم السطحية والسخافة..

نظرت له (علا) صامتة، وقد بدأت الدموع تملأ عينيها، في إشارة غير لطيفة لقرارها..

* * *

قال (أسامة):

ـ كل علاقة بتعدي علينا بيبقى ليها طعمها.. ليها جوها وشجنها

وريحتها وأغانيها.. ووجعها.. اللي بيقول لك إن اللي بيحب كتير ده ماعرفش الحب.. يبقى غبي.. بالعكس.. ده عرف الحب بكل طعم ليه.. قلبه عرف يعني ايه يدق بمليون طريقة مختلفة.. بس للأسف.. عرف برضه يعني ايه انه يموت بمليون طريقة تانية..

* * *

ساد صمت ثقيل.. ربما أطول مما ينبغي، وهو ينظر لها متأملا، في حين تنظر هي شاردة في اللا شيء، ولا تستطيع حتى أن تنظر له..

شعر أن كل ذلك السحر، الذي كان يميزه، كان له علاقة بغموضه.. شعر أنه ما كان ينبغي له أن يحكي أي شيء..

التفتت له أخيرا، ثم قالت ودموعها تنساب رغما عنها:

ـ مش عارفة ماالحبكش..

نظر لها في حذر، وقال:

ـ (علا).. فكّري كويس وماتستعجليش..

ضحكت وسط دموعها وهي تقول:

ـ مااستعجلش أيه؟.. انت كل اللي أنت عملته أنك أثبت لي أن انت الوحيد في الدنيا اللي ممكن تفهمني وتراعيني قوي.. انك واحد، رغم كل اللي فيه، لسّة كل همّه أنه يسعدني ويديني اللي أنا عاوزاه..

ثم نظرت له بضحكة وقالت:

ـ أنا بحبك قوي..

شعر بثقل غير طبيعي ينزاح من على صدره، وأمسك بيديها، ناظرا لعينيها نظرة تقدير لم ينظرها لأحد في حياته، قال بصوت خافت:

ـ يعني انت هتستحمليني بعقدي دي؟

قالت بضحكة:

ـ لما أنت تستحملني بعقدي الأول..

ابتسم في هدوء، ثم قال لها بحرص:

ـ آخر طلب ليَّ عندك بقى..

نظرت له في تعجب، فقال باسما:

ـ لو خلفنا بنت.. لازم نسميها (رؤى).. أنا طول عمري باعشق الاسم ده..

ضحكت في سعادة، وأومأت برأسها أن نعم..

وشعر (ج) للحظات أن كل شيء سيكون على ما يرام.. وأنه سيموت بعد أربعين عاما في حضن تلك المرأة.. وأن الله قد اختار له أخيرا أن يكون مرتاحا من كل تلك الآلام..

* * *

خاتمة

في الواقع لا توجد خاتمة.. فلكل نهاية امتداد يبدأ به كل شيء..

وصمت (أسامة) تماما ناظرا لهم..

نظر للوجوه المنبهرة، والوجوه المستسخفة ـ والوجوه الراضية..

قالت إحدى الطالبات، في تعليق تكرر في كل المحاضرات السابقة:

ـ يعني بعد كل ده.. (أ) و(ب) و(ج) و(د) طلعوا شخص واحد؟

أومأ (أسامة) برأسه في هدوء، ثم قال:

ـ بصوا على نفسكم في كل مراحل حياتكم.. وقولوا لي مين فيكم فضل لحد دلوقتي زي ما هو؟

لم يرد أحد، فقال (أسامة):

ـ القرار.. (علا) قررت أنها تكمل.. قررت أنها رغم كل الصعوبات والعقد اللي في حياة (ج) قررت تكمّل..

ثم قال، بطريقة المحاضر العالم التي يعشقها:

مشاعر البني آدم مننا.. عاملة زي صندوق مليان.. عشان يشيل حاجات جديدة لازم يرمي القديم. والعبقرية، انك تعرف تختار تحط ايه وتشيل ايه.. عشان الصندوق ما يتكسرش، أو يتقل لدرجة انك ماتعرف تشيله.. وتخسر كل حاجة..

قالت واحدة أخرى، في عدم تركيز لما يقوله:

- يعني في الآخر كل دول بيموتوا؟.. كل اللي حصل لهم ده.. وفي النهاية بيموت في عز فرحته وراحته؟..

صمت (أسامة) لحظات، ثم قال:

- يمكن لما نحس قوي باللي حصل.. نعرف نلحق نفسنا.. ونعرف ان العمر كله مايستاهلش يعدي في لحظة وجع..

ثم قال بهدوء:

- دلوقتي المحاضرة خلصت.. أي ملحوظات يا ريت نسلّمها لمكتب الإدارة برّة.. نمرتي معاكم كلكم لأي واحد في أي وقت عاوز يكلمني يسألني في أي حاجة..

لم ينطقوا بكلمة، فابتسم بهدوء قائلا:

- انتهى الوقت.. يا رب أكون أفادتكم ولو بحاجة صغيرة..

لمّوا أوراقهم جميعا، وبدءوا في الانصراف، وهم تحت تأثير الصدمة.. منهم من شكره بشدة، ومنهم من انصرف مسرعا.. حتى خلت القاعة تماما، فقال (أسامة) وهو يلملم أوراقه، ودون أن ينظر حتى:

- هاتفضل باصص لي كده كتير..

قالها لذلك الرجل، الذي بدأ يغزو الشيب رأسه، ومازال جالسا وحده في القاعة، ليقول الرجل:

- المرة دي كنت حاسك هتحن وتقولهم ان النهاية مش حقيقية..

نظر له (أسامة) تلك المرة، وقال بابتسامة:

ـماينفعش.. هترفع عليّ قضية لو عملتها..

* * *

رفع طالب يبدو كبيرا في السن يده، فضحك (أسامة) قائلا بهدوء:

ـ مش أنت والنبي.. مش كل محاضرة ليَّ تعمل كده..

التفت رؤوس الطلاب لذلك الطالب المبتسم، الذي أنزل يده ثانية..

* * *

قال الرجل بصوت هادئ:

ـ كده أحسن.. انت عارف ان كده كل واحد فيهم هيرجع يحاول يصلّح الأمور مع مراته.. واللي يعترف بحبه لحبيبته.. واللي يخاف من الموت قوي لدرجة انه ممكن يغير كل حاجة فيه عشان يلحق نفسه..

ثم أكمل ساخرا:

ـ وكمان انت عارف ان النهايات المأساوية بتنجح أكتر.. وبتفضل في الذاكرة أطول..

أومأ (أسامة) برأسه وقال:

ـ للأسف.. مابنتعلمش غير بكده فعلا..

ضحك الرجل في وقار، ثم نهض من كرسيه، ليهبط درجات السلّم في عرجة واضحة، بات لا يخاف من أن يظهرها على الإطلاق، وربّت على كتف (أسامة) قائلا:

ـ سلم لي على مراتك..

ابتسم (أسامة) وقال بحنان:

ـ وانت سلم لي على (رؤى).. وبنتك (سارة)..

لم يلتفت إليه الرجل، وهو يلّوح له بيده، ثم يخرج تلك العصا ويفردها.. وينصرف متكئا عليها في هدوء..

ذاهبا لتلك الزوجة التي علّمته الحياة..

علّمته الـ(هيبتا)..

لكن بطريقتها الخاصة..

* * *